
رمش
العين
محمد خير
قصص

رمش العين
وقصص أخرى
الطبعة الأولي : ٢٠١٤
رقم الإيداع ٢٣٠٢٤/ ٠١٣
الترقيم الدولي : ٧-٣٨-٦٣٠٦-٩٧٧-٩٧٨
الغـــــلاف: حاتم سليمان
إستشارى النشر د. سمير مندى

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة- المعادى - القاهرة.
تليفــون ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد اليكتروني info@kotobkhan.com
موقع اليكتروني: www.kotobkhan.com



رمـــش العـــين

وقصص أخرى

محمد خـير





+

إهـــــداء

إلــى

هـــــاني درويـــش



يا عيسى

ينبّهني خالد إلى البنت الجميلة التي تصعد إلى الميكروباص، صغيرة تبدو، ربما في الثانوية، صعدَت وجلست وراءنا في الكنبة الأخيرة، ثم سألتني فجأة: كم الأجرة يا عمّو؟

عمّو؟!

ينفجر خالد في ضحكة مكتومة، وأبتسمُ وأقول للبنت: لا أعرف، سنسأل السائق.

لكني بالأمس لم أبتسم عندما نفثت الخالة دخان السيجارة التي اقترضتها منّي وقالت تزوّج، الحق نفسك، كي لا تأخذ غدًا واحدة "خَرْج بيت"

هززتُ رأسي لها، كأني أشاركها التأفّف من خَرْج البيوت، و لم أنطق بالرد البديهي: وما أنا يا خالتِي؟ ألستُ كذلك أيضًا؟

لكن صوت فتاة الميكروباص يظل يتردّد في رأسي وأنا أصعد سلّم البيت، فأبتسم حينًا، وأقطّب حينًا، وأدخل البيت الصامت وما زلت في دخولي كل مرة أتطلعُ نحو الأريكة، كأني سأرى سلمى هناك، وكان يضايقني فيما مضى أنني حين أدخل لا تلتفت نحو الباب، وكانت حين تأتي بعدي تدقّ الجرس فأهرع لأفتح لها، فتدخل محمّلة بكل عجيبة تجدها في طريق السوق, فأتناولها منها، وأحتضنها، وأبتسم لتكشيرتها التعبة وكأن أحدًا أرغمها على ما تفعل، لكني حين كنت أصلُ بعدها، كنت أفتح بالمفتاح، وأجدها تتطلّع في التليفزيون ولا تنظر، أقتربُ منها فتلتفت لي أخيرًا بابتسامتها المرهقة، وترفع لي ذراعيها كأنها ابنتي، وتخيّلتُ مرارًا أني أسألها لماذا لا تنظرين إليّ حين أدخل، لكني بعد دقائق كنت أجد الأمر تافهًا، فأحجم أو أتردد أو أنسى، وها هو البيت نفسه، والأريكة نفسها، لكن التلفاز مظلم ووحيد.

وكان خالد نفسه الذي اصطحبني يومها إلى هناك، طلبتُ رقمه، وأتاه صوتي صارخًا وباكيًا ومذهولا، لكني لم أعرف الذهول الحقيقي إلا حين دخلت الغرفة البيضاء، ورفعتُ الملاءة، الجسد كامل أبيض نقي بلا خدش واحد، وعرفت أن سيّارة السفر انقلبت على الرمل، وكنت أظن الرمل أهون من الأسفلت، ولكنه لم يكن، وقالوا صدمة عصبية ونزيف داخلي اختطفا روحها، وتركا مظهر جسدها كما عرفته دائمًا ناعمًا

كاملا، صغيرًا هادئًا وحنونًا، وهناك اقتربت طبيبة أربعينية وسألت بصوت خفيض: أنت عيسى؟

نظرنا خالد وأنا لبعضنا بعضًا، وقلت للطبيبة إنني سيف، زوجها.

تغيّر وجهها الأربعيني، وقالت: البقية في حياتك، وابتعدَت وسط الصراخ المتوافد المتصاعد.

مِن المدرسة إلى الجامعة إلى بيتنا، من الدروس الخصوصية إلى سكاشن الكلية، إلى أن أوصلنا الأهل إلى طُرْقة غرفة النوم، من هرمونات المراهقة إلى مغامرات الشباب إلى اعتياد البيت، سيف وسلمى، سيف وسلمى، اسمان كاسم واحد، زواجهما خبر قديم قبل أن يقع، وكانت تداعبني حين أحاولُ إثارة غيرتها، فتقول إنها خبزتني بيديها هاتين، وتبتسم واقفة في المطبخ وهي تضم كفيها كأنها تخبز أو تعصر، وأمشي وراءها في البيت محاولا إقناعها بأنني خبّأتُ عنها الكثير بذكائي، لكن الضحك يغلبني، فأدفعها نحو الأريكة وأتمدّد في حجرها مستبدلا وجهها بسقف الغرفة، لكنها تتطلّع إليَّ بنظرة غريبة، وتقول فجأة: سيف، لا تَمُت!

يُدهشني ويُضحكني الطلب الغريب، فأقول لها سأحاول، ومرَّات أخرى أسألها بجدّية مازحة إن كانت تخبئ عنّي شيئا، خطة ينتويها أقاربها

لقتلي، أو ربما مرضًا خطيرًا أصابني دون أن أدري، فتقطّب تقطيبتها الحلوة، وتهزّ رأسها نفيًا، وتقول: فقط ابق معي للأبد.

فمن عيسى إذًا؟ من يا سلمى؟

يومها في مستشفى الموت، ابتعدت الطبيبة، لكنَّ ممرضة ثرثارة أفضت إليَّ: أدخلناها العمليات وهي تصرخ وتصرخ على كلمة واحدة: يا عيسى!

ولا تكتفي الممرضة العجوز بذلك، وإنما تقلّد الصوت، وتمدّ حروفه إلى آخرها :يا عيساااا يا عيساا.

و لم تقل سلمى شيئا آخر، و لم يتأخر موتها في الغرفة الكئيبة. وتسألني الشمطاء: عيسى ..أخوها؟

أهزّ رأسي بالإيجاب، لكن سلمى بلا إخوة، ويأخذني حزن الجنازة ووجع الموت، لكني أقف في عزاء الليل ممزّقًا بين ألم وذهول، بجواري أبوها المهدّم، نصافح المعزّين، وأتصفح أنا الوجوه بحثا عن أي عيسى، ليس إلا واحد هَرِمٌ طاعن في السن يتوكأ على أحد أقربائه، وأتابع النظر فلا أجد ما أهتدي به، فأعود إلى البيت قبيل الفجر، غير قادر لا على الحزن الكامل ولا على الاستسلام للخديعة، ولولا أن كلا من الطبيبة

والممرضة أخبرتني على حِدَة، لقلت اختلط على إحداهما الأمر، وتأتيني صديقة بلهاء بصورة مكبّرة لسلمى، "مزيّنة" بشريط الحداد، فأشكرها ثم أغلقُ على الصورة درج الدولاب، ومر عام واثنان وثلاثة، فلا أنا قادر على تعليق الصورة، ولا على التخلّص منها، وكانت سلمى تقص الصور واللوحات من المجلات الفنيّة وترسلني لأحيطها بالبراويز من ورشة قديمة قرب البيت، ويبتسم لي "الصنايعي العجوز، وأجلس عنده كطفل أرسلته أمّه لتسوية الكحك، ثم أرجع بالصور ونعلّقها سويًا، فتتأمّلها بإعجاب كأنها أصليّة، وتسألني رأيي، فأُبدي إعجابي، وإلا فالويل لي.

وليلتها قالت رحلة سريعة إلى مدينة غير بعيدة، رحلة عمل لكنها بدت مبتهجة، وأخذت تعدّ الساندويتشات للطريق، وأيقظتني مبكّرًا، وقبّلتني في الفراش بين النوم واليقظة، وعدتُ للنوم ساعة أو بضع ساعة، حتى تلقيت الاتصال المميت، لم تبتعد السيارة كثيرًا خارج مدينتنا، على الطريق انقلبت وانفتحت الأبواب، وعلى الرمل رقدت سلمى وبيني وبينها ٧٠ كيلومترًا، غرباء نقلوها، وغرباء بحثوا في هاتفها وجرّبوا أرقامه، وغرباء كانوا حولها حين أغمضت عينيها، وغرباء سمعوها تنادي على عيسى.

وفكّرت أن أسأل صديقة أو أختًا، لكني بقيت بين خيوط الخوف والتردد والخجل، وكلما عبرتُ خيطا كنت أعود فأقول وما الفائدة على أي حال! وأتطلّع في لوحات الحائط الصغيرة فلا أعرف إن كانت الألوان قد بهتت، أم أنها أفاعيل الغبار، وفي ليلة ثملتُ وخالد في بار صغير، فاستندت إلى الطاولة ووقفت مترنحًا، ثم أخذت أهتفُ في الحضور: حدّ هنا اسمه عيسى؟ يا عيسى؟

فيدرك خالد أنها إحدى الليالي التي سيحملني فيها إلى البيت، فيفعل، ويتركني على الباب، فأتعثر في إدخال المفتاح حتى أنجح، وأدخل لكني أظل واقفا عند الباب منتظرًا أن تنظر سلمى إليّ.

استدعاء

قطار الليل ألقى بي إلى المحطة الرئيسية البعيدة عن بلدنا بعشرات الكيلومترات، وجدت "الميكروباصات" تحمّل في ضوء الفجر، واكتمل أحدها قبل طلوع الصباح، وانطلقنا، نزلت عند المئذنة الكبيرة، وركبت سيارة بالنفرّ، هواء الصبح يضربنا في القسم الخلفي من العربة ربع النقل، الشمس تصعد بهدوء وثقة، تمنّيت أن يكون أبي بخير، وأن يكون مجرد شوق عادي يسمح لي بأيام راحة أحتاج إليها.

سلكتُ على أقدامي الطريق الصاعد في قريتنا الجبلية، نظرات تحدق بي بين من لم يتذكرني ومن لم يعرفني، على كتفي حقيبتي الصغيرة التي لم أعد أجلب فيها "إنجازاتي الصغيرة من دواوين شعر أصدرها في العاصمة، يميل أبي إلى الشعر القديم، ولا يراني في التليفزيون، فصرت أكتفي بطمأنته على أحوالي المادية والصحية.

فتحت أمي الباب بوجه متورّد، واحتضنتني بقوة.

ومن ورائها جاء أبي: برضه كلّمتيه؟

والتفت إليّ: حمدًا لله على السلامة.

ودخل حجرته.

بدا لي، في تلك اللمحة القصيرة بحالة جيدة، أو معقولة قياسًا إلى سنّه، فهدأت داخلي أشياء، ونمت قليلا، وأكلت بشهية على الغداء، وبعد الأكل جاء دوره لينام، لملمتْ أمي الأطباق وجاءت إلى حجرتي.

- طبعا لازم أكلمّك، يعني هكلّم البنات؟

تتكلم بصوتها القوي الواثق، الذي طالما أرعبنا في طفولتنا، وتسكت قليلا، تلملم الثوب الأسود تحت رجليها وتتابع:

خلاص استوطوا حيطنا، وأبوك ماعادتش صحّته تستحمل مشاكل.

سكتُّ كعادتي كلما تحسّبت لما سيأتي، وتركتها تتابع:

شفت الزبالة برّه البيت؟! كل يوم من ده، مشاكل ع الأرض، وتكسير في البوابة، وقلّة أدب، زمان كنا بتليفون واحد نخلّيهم يتلمّوا، دلوقتي خلاص، وأبوك مش مصدّق إنه خلاص، ما بيسكتش.

خشيت طوال حياتي التورّط في مشكلات أبي، وظننتُ أنني -بعد تغيّر الأحوال- قد نجوت منها، يبدو أنني لم أفعل.

وأمي تتابع:

وامبارح، قالوا له هنيجي نرميك برّه البيت، شفت يا ابني؟

ومسحَتْ دمعة.

قدمتُ أحد حلولي الهروبية:

- تعالوا عندي.

لكنها تابعت كما لو لم تسمعني، أو لم تقتنع:

- وأبوك يسكت؟ قال لهم اللي في طيزه لباس يعتّب م البوابة دي.

بدأت ساقي اليسرى في الارتعاش، فأعدتُ تكرار طلبي:

سيبوا المخروبة دي وتعالوا عندي.

تأمّلتني للحظة، وبدا أنها ستقول شيئا، لكن ضجّة تصاعدت فجأة خارج البيت، دارت عينا أمي في المكان، وغادرت الحجرة.

وقفتُ في مكاني لا أعرف ما أفعل، وعادت أمي سريعًا وفي يدها شيء، سرعان ما تأكّدت منه، مسدّس، وأعطته لي.

- امسك يا حبيبي، ماتخافش، ده مترخّص.

نظرت إليها كالأبله، ظلّت تمدّ يدها إليّ، تناولت المسدس، أثقل مما تصوّرت، أشارت إليه: دي الإبرة، ماتنساش تسحبها.

وسحبتني إلى النافذة العلوية، جذبت الطاولة أسفلها، صعدت عليها ورأيت الجمهرة خارج بوابتنا.

وبكت أمي أخيرًا: لو عدّوا البوابة دي ماتبقاش ابني.

أخرجتُ الطبنجة من حافة الشباك، وأمسكت اليد اليمنى باليسرى لكنها مع ذلك ظلت ترتعش.

طـائر

أيقظتني آمال مرة أخرى، ورأيت وجهها مذعورًا، فانقبض قلبي، لكنها صمتت لحظة ثم قالت: هناك عصفور في الصالة.

عصفور؟! رددتُ دون تفكير، ولولا مزاجي النكد لابتسمت.

تابعَت آمال: انحشَر وراء الكنبة.

وراء الكنبة؟ كرّرتُ كلامها مرة أخرى، ونظرت لها متوجّسًا وقد تجدّد داخلي الشك والخوف.

غادرت وراءها إلى الصالة، حيث الأريكة الكبيرة التي تحتلّ زاويتين على شكل حرف (L)، الشمس الصباحية تسلّلت من زجاج الشباك، واستطعت سماع أصوات العصافير تزقزق من بين أغصان الشجرة القريبة، وأصخت السمع لكني لم أسمع أصواتًا مثيلة من داخل الصالة.

توقّفت آمال، ونظرت لي، وأشارت إلى الشباك وتكلّمت بصوت خافت: دخل من الشباك وتخبّط بين الجدران، صعد فوق نجفة السقف،

وحاول الخروج مجدّدًا، لكنه كان يصطدم بالزجاج، خفت أن أقترب منه، وحاولت أن أدفعه من بعيد بعصا المقشّة إلى الخارج، لكنه نزل إلى أسفل وراء الكنبة و لم يصعد.

كنت أتابع حديثها، وأنظر تلقائيًا إلى المواضع التي أشارت إليها، وعندما انتهت، كان نظري قد استقر عند ظهر الكنبة العريض، اقتربتُ بحذر ووطأت بركبتيّ الوسائد الرخوة، وحاولت النظر إلى ما بين الحائط وظهر الكنبة، ولكن الشمس كانت تنعكس من زجاج النافذة، فلم شيئا، جذبت الستائر، فتسللت بعض العتمة، ونظرت.

لا شيء" قلت لها.

سكتت لحظة ثم قالت: ربما دخل أسفل الكنبة.

نهضت وركعت، ولكن المساحة الضيقة أسفل الأريكة بدت مظلمة تمامًا. قمت مرة أخرى ونظرت إلى آمال، بدت كما لو أنها تريد قول شيء. قلت: لنرفعها.

تبادلنا رفع الوسائد ونقلها إلى الجانب الآخر من الصالة، الكنبة تنقسم إلى قطعتين، فبدأنا بالناحية اليمني، أدخلت أصابعي لأمسك بطرفها من أسفل، وفعلت آمال مثلي من الناحية الأخرى، أمسكت الطرف بقوة،

وحاولت بذل مجهود أكبر لأخفف الحمل عن آمال، ورأيتها بطرف عيني منقبضة الملامح وتنظر لأسفل بتركيز شديد، ولاحظت أن ذراعيها قد نحِفتـــا كثيرًا، حرّكنا الجزء الأيمن من الأريكة جانبًا، ولم نجد شيئا سوى بعض الغبار الخفيف، فانتقلنا إلى القطعة اليسرى، سمعت آمال تلهث فاقترحت عليها أن أرفع الأريكة لأعلى من ناحيتي فقط، على أن تنحني هي وتنظر، رفعتها وانحنت ونظرت وسكتت. "هاااا؟" همهمت مستفسرًا، وجاءني صوتها من أسفل"لا شيء"

أعدنا كل شيء إلى مكانه، وانهرتُ جالسًا على الأريكة، بينما فتحت آمال باب البلكونة المغلقة وخرجت.

انتظرت ثواني ثم مددتُ يدي إلى الشباك، وفتحته بهدوء فتحة صغيرة تناسب طائرًا، ثم خرجت خلف آمال.

كانت مستندة إلى السور الخشبي، وقد أمالت رأسها إلى أسفل، فكّرت أن احتضنها ثم تراجعت، وقفتُ جوارها ولم تتحرّك، نظرتُ إلى أسفل حيث تنظر، ولم يكن الشارع قد استيقظ بعد.

"ربما غادر عندما كنتِ توقظينني

"هممم!" ، همهمت دون أن تنظر لي.

كررتُ: العصفور، ربما غادر بينما كنت توقظينني من النوم.

قالت: آسفة يا حبيبي.

كدت أقول إنني لم أقصد ذلك، ثم فكرت أن أغيّر الموضوع، ولكن ذهني كان خاويًا، فنظرت إلى الناحية الأخرى حيث الشجرة العجوز، وتأملتُ عصافيرها تتقافز بدأب فوق الشارع الساكن.

بينج بونج

سحبتني هدى من يدي إلى الشرفة، أشارت إلى الشرفة المقابلة وشرحت الحادثة:

- وَقف هناك للحظة، على السور، ثم قفز، أيقظ الارتطام الشارع كلّه.

تطلعتُ إلى الشرفة المغلقة، على سورها بعض أُصص الصبّار، وفي الأعلى قفص عصافير خاو، وتخيلت "حازم" بجسده الفارع -كما أتذكره قبل سفري الطويل- يطلع السور بخطوة واحدة، يقف -أو يتردد- تلك اللحظة، ثم يقفز.

كان واضحًا أنه سيفعلها.

تؤكد شقيقتي وهي تجلس على الكرسي البامبو، مواصلة النظر إلى الشرفة التراجيدية.

كنتُ أعرف أن لا أحد شاهد الحادثة فعلا، وأن الشارع كان نائمًا كعادته، ثم استيقظ الجميع على الدويّ، لكن هدى -تعويضًا عن أحلامها الإعلامية القديمة- تحبّ أن تصف الأحداث.

كنتُ أراه من هنا كثيرًا في أيامها الأخيرة -تشير نحو نافذة موصدة- ينقل ليلى في أرجاء البيت بحذر، يكاد يحملها أو يحملها فعلا، كأنها ابنته أو أمّه، يطعمها في فمها، ويصبّ القهوة، يمسح عرقها بيديه، يتأمّلها وهي تنعس في الشرفة، ويبكي.

تسكت لحظة وتتابع:

كان صوت بكائه يصل إليّ في غرفة النوم.

اعتدتُ مبالغات هدى، فأمّنت على كلامها بهزّة رأس، وتطلعتُ من موقعي إلى صالتها التي خلت من ضجيج أسامة، انفصلا في أثناء سفري، ويبدو أن ذلك الانفصال، والهدوء، حوّلاها إلى برج مراقبة لحازم وليلى، رفيقي الجامعة القدامى، اللذين سبقا هدى وأسامة إلى السكن في المنطقة، عرفتُ -في البلد البعيد حيث أعمل- بمرض ليلى الجميلة ورحيلها، ثم نهاية حازم المفجعة، وشعرتُ -حيث جلسنا في الشقة نصف الخاوية- بثقل هائل، وكدتُ أقترح على هدى أن تنتقل وابنتها -النائمة الآن- من هذا الحيّ، أو من تلك البناية على الأقل، لكن ثقل صدري جعلني قليل الكلام، وخفتُ التورط في إثناء أجازتي القصيرة في مسئوليات إضافية.

لكن كان لأسامة -على المقهى- رأي آخر:

لم ينتحر، أنت تعرف أختك وخيالاتها.

يقول أسامة بلهجة تكاد -لولا مأساوية الظرف- أن تكون ساخرة، بين نفس أرجيلة وآخر: المنتحر يترك رسالة، وصيّة، وغالبا ما تكون له سوابق، محاولات انتحار، حازم ينتحر؟!

في مقهانا القديم، حيث كنا - في الأيام الخوالي- نلعب "الاستميشن طوال الليل، ونأكل من عربة الكبدة التي اختفت الآن، يشرح أسامة: سَقَط، كما يسقط الناس من الشرفات، وأغلب الظن أنه كان ثملا كالعادة.

يسحب نفسًا طويلا وينفثه: يا رجل، لم يتوقف عن السُكر حتى في أثناء مرضها، المرأة مريضة، وهو، العواطلي، يصرف نقودها على الزفت.

كنت أتذكّر حازم كخبير في الفشل والمشروعات البائسة، بين تجارة خطوط الموبايل أو الشراكة في سيارات أجرة، وتذكّرت أنني -حين عرفت بزواجه من ليلى- اندهشت من ارتباط تلك المجتهدة بذلك الكسول، أما أسامة فقد واصل هجومه على الفقيد:

أقسم بالله أنني سمعته يضربها أكثر من مرة، ارتاحت منه يا رجل.

ها قد لحق بها.

طبعا، ليطلب نقودًا أخرى.

وأخذ يتحشرج في ضحكة دخانية، راقبتُ قسوته وشعره الذي انحسر كثيرًا عن مقدمة الرأس، والترهّل الذي أصابه ولا بدّ أصابني أيضا، وخيّمت عليّ كآبة.

وربما كان خطأ أنني ألححتُ لهدى عن حديث المقهى، إذ توقفت للحظة عن الإشراف على المرأة التي تنظف بيتي، بيت العائلة القديم، ورمت نظرتها الغاضبة إلى لا مكان: يضربها؟ أقل واجب!

ولم تصبر طويلا أمام نظرتي المتسائلة: أنت تتذكر ليلى، أليس كذلك؟

ثم بصوت أخفض: كانت، يعني، لم تكن مخلصة تمامًا.

فاجأني هذا فعلا، أتذكر عيون ليلى الطيبة، الخجول تقريبًا، مشيتها الجدّية وصوتها الرقيق، أتذكر أيضًا إصرارها على حازم، رغم بؤسه الواضح الذي أزعج أهلها، لم يكن حبًا من الذي "يتحاكى عنه طلبة الجامعة، لكنه كان حميما وأليفا ويشيع نوعا من الطمأنينة، كطائرين اعتادا المبيت على نافذتك من آن لآخر.

وتختصر هدى في تفاصيل الكلام لأن "عندنا بنات"، لكنها تهزّ رأسها وتهمس كما لو كانت تحدث نفسها: الرجل تحمّل وسامح، وهي، ماذا

أقول؟ رأيتُها بنفسي، أستغفر الله، وحين مرضَت لم يكن لها غيره، تموت بين يديه ويرعاها وفي قلبه النار، وتستكثر عليه كأسين؟

وتضرب بكفيها، كأنني قلتُ كلاما لا يمكن تصديقه، وتلحق بالمرأة الأخرى إلى المطبخ، وتتذمّر: كيف استطعت المبيت في هذه المزبلة؟

وعاهدت نفسي ألا أعود -إذا التقيت أسامة- إلى هذا الحديث، لكن الليل طال في المقهى وأردنا -بلا اتفاق- أن نتجنّب مشاكله مع شقيقتي، فلم يكن هناك بدّ من الكلام، وفاجأني أسامة بدوره: المرأة معذورة!

ولم يترك لي الكثير لأخمنه "حازم كان "منظرًا" بلا صحّة، لا بدّ أنك تتذكر

قفزت إلى ذاكرتي مشاهد هائمة لحازم في مستشفى ما، لكني لا أذكر أنه كان أمرًا خطيرًا، وربما حتى لم يكن حازم.

ويخفض أسامة صوته: لم يمر على زواجه أسابيع حتى بدأ يسألني وسط الكلام- عن أقراص ووصفات، ثم لم يعد إلى هذا الأمر، لكني تيقّنت من سوء حظ المرأة التَعِسة، تحدّت أهلها من أجله، ثم ماذا؟ لا مال ولا صحة أيضًا.

سكتنا، وأخذ أسامة يضبط شعلة الأرجيلة، ويتمتم: لا أنسى تلك المرّة، رأيتها تحت البيت في سيارتها المتوقفة، رأسها مائلة على المقود، وتبدو كمن فقدت وعيها، نقرتُ على الزجاج، رفعت رأسها مفزوعة ورأيت وجهها، ماذا أقول لك؟ لم تكن لتصدّق أن هذه ليلى.

أخذ يهز رأسه دون أن يشرح السبب في عدم تصديقي المفترض، لكني تخيلت وجه ليلى الصبوح، وقد ملأته كدمات حمراء كبيرة، أو ربما محض دموع.

وتابع أسامة وقد بدا عليه -للمرة الأولى- شيء من الإشفاق: واكتملت الطامة بالسكّري، اللهم احفظنا.

لم أستطع أن أحدّد الطرف الذي يشفق عليه أسامة، لكنه أوضح وهو يضبط مجدّدا شعلة الحجر: يعني، رجل مريض، فليسرّحها بإحسان، لكنه ابتزّها بالحب، ربطها حتى أمرضها.

ضاق المكان عن أي نسمة هواء، التقطتُ شهيقًا وصاحبه -كعادتي كلما سمعت حديثا عن المرض- نغزة في يسار الصدر، ولفّني حنين مفاجئ إلى بيتي في الغربة.

لكن هدى، في اليوم التالي، وضعت يديها في وسطها:

- هي التي أمرضته يا أخي، ألم تُدخله السجن؟

سجن؟

رددتُ بذهول هذه المرة.

أكملت هدى:

لم يبق هناك إلا أياما، لكنه انكسر، خرج رجلا آخر، كانوا يزوروننا تشير نحو الكنبة العريضة فأكاد أراهما- ويمكنك رؤية الذلّ في عينيه، تتحكّم حتى في ألفاظه، والرجل يحبها لكنه مكسور النفس، امرأته تعمل وهو يتعثر، وفي واحد من مشاريعه إياها سجنه شركاؤه، ونقول لها كلّمي أهلك يا ليلى، المسكين مقطوع من شجرة، تقول لنا سأتصرّف، كبرياؤها فوق كل شيء، اتصلتُ أنا بأهلها، دفعوا المال وأخرجوه، خرج من السجن ودخل الهمّ، وما الذي ورّطه في ذلك؟ أراد رفع رأسه أمامها، أذلّته.

"لا يا حبيبي

يقول أسامة، في لقائنا الأخير قبل عودتي إلى الغربة، "سجَنه طمعه وكسله، لا يريد أن يعرق، امرأته تهلك في العمل وهو يريد الكسب من

الهواء، طيب يا حبيبي هذه مسألة تحتاج الذكاء، وحازم يعني، أنت تذكر طبعا"

ويضحك.

وتطلعت نحو زاويتنا القديمة، رأيت الشبان يضحكون ويلعبون كأنهم نحن في تلك الأيام، وكانت الشاشة العريضة تعرض مباراة أجنبية ما، لكن أحدًا لم يكن يتابع، وقفزت لقطة من قديم:

الشمس تضيء شبابيك المدرّج الواسعة، وحازم يتعثر في الكلام مع الطالبة الفاتنة التي جلست جواره، ووراءهما نجلس أنا وأسامة، ننادي على حازم بتكرار مزعج، وكلما التفت إلينا غرقنا في الضحك.

غفْوَة

توقّف عن السير فجأة، قال: ننام هنا.

في الشارع؟

على أريكة حجرية وضع حقيبته، أسند رأسه فوقها، وتمدّد، ظللتُ واقفا، تطلّعت إلى البحر، كتلة ظلام، الرصيف خاوٍ والبرد يحفر بإصرار تحت الثياب.

عشر دقائق ثم توقظني، وتنام أنت وأوقظك، وهكذا.

وتراجع برأسه ونام، وقفتُ في عتمة لها ظلّ أصفر، تطلّعت لأعلى، لا نجوم كأنه بحر آخر، عدت أنظر إليه، صوت شخيره يصارع الموج، ثم كبس عليّ النعاس بكل ثقله، حتى تراخت ركبتاي.

أشعلت واحدة من سيجارتين تبقّتا معي، أخذت أتحرّك وأنفخ، أعدّ الأرقام فأزداد نعاسًا، أتحرّك في دوائر حول أريكة الحجر، وأنظر في الساعة، ٣ دقائق، ٣ ونصف، أهز رسغي كأني سأسرّع العقارب، وأعود

فأنظر للنائم، ورّطته في مشواري وألحّيت عليه حتى استجاب، وجئنا من أقصى البلد، وبين الحركة والمواصلات والمشاريب نفدت النقود، ولم يتبق سوى ما يكفي الرحيل في قطار الصباح الباكر، وقلنا نتمشّى إلى المحطة، ونجلس هناك، لكن الطريق طالت وانقطعت أنفاسنا، فتوقّف، وقال ننام هنا.

ويجمّدني البرد، لكن أمي تأتي بالشاي الساخن فأصفق فرحًا فتضحك، وأنهض لأتناوله منها، فأصدم قدمي، وأتأوّه، وأجدني جالسًا على الرصيف، والليل لا يزال هنا، وأتلفّت حولي وأنظر في الساعة: ١٢ دقيقة، أتحامل وأنهض وأوقظه، يرفع رأسه ببطء، ويجلس ثم ينهض، أتمدّد مكانه.

يُنذرني: عشر دقائق.

أومئ برأسي وأغيب.

توقظني الشمس.

ألبث ثانيتين على ظهري، محاولا الاستيعاب، أجلس، حركة طفيفة من المشاة، لكن لا وجود له، أنهض هاتفا: يا ابن الـــ...

ثم أرى الحقيبة، انزاحت عن مكانها سنتيمترات، أتناولها، أفتحها، في قعرها فتات ساندويتشات جلبها معه في الصباح، كتاب الفيزياء ومذكّرة مراجعات، ورق أبيض بلا كتابة وقلم، جريدة الأمس.

وضعتُ حقيبته جواري، نظرت في الساعة مدركا بفزع أننا فوّتنا القطار الرخيص، انتظرت، انتظرت.

- و لم يأت أبدًا؟

تسألني هبة.

لم يأت أبدًا.

أتطلّع إليها، تجلس ووجهها للبحر، وظهري له، تنهض وتمدّ يدها، فأناولها كوب الحمّص عبر العربة، تجلس مجدّدًا، فأقول لها: على هذا المقعد نمنا.

تنظر لأسفل كأنها ستراناا، تتحرّك كأنها تُفسح لنا مكانًا، فتكتمل استدارة فخذها تحت البنطلون الأسود، تسألني: و لم يردّ على الموبايل؟

أنظر إلى وجهها الشاب وأبتسم: كان ذلك قبل عشرين عامًا.

٢ ؟

- ١٧.

تحرّك الملعقة في الكوب، تنفخ، تتذوق.

جلستُ هنا حتى العصر، أخشى أن يعود فلا يجدني، في المساء اتصلتُ بأهله على هاتف البيت، لكنهم سألوني عنه. فأغلقتُ الخط.

و لم تعد أبدًا؟

لم أعد أبدًا.

يا بختك.

أحدق في نظرتها العابثة وأبتسم: عندك كم سنة؟

خمن.

١٧؟

٢

وتكمل بعد لحظة: و ٤ عيال.

أفتح فمي مندهشًا، وأنظر للخصر النحيل، ثم للأصابع البيضاء.

تغلق كفها وتغمز: أضع الدبلة على باب البيت.

وتشير نحو السوق: وعلى باب المحل.

ثم تحرك إصبعها أبعد: وعلى باب أبي.

ثم تشير بالإصبع نحوي: هربون عندنا، ولا نجد نحن مهربًا.

أشيرُللبحر خلف ظهري.

هزّ رأسها أسفا، تضع كفها بجوار فمها، كأها همس: المشكلة أني لا أبكي.

أبدًا؟

أبدًا.

وتحدّق في بعيون واسعة كأها تثبت كلامها. أستند إلى العربة وأتطلّع إلى الشارع، العربات صارت أسرع كثيرًا.

بعد يومين جاؤوا، الأب والأخ ووراءهم تتعثر الأم في جلبابها، وصلوا هنا، رأيتهم فتراجعت، اختبأت، وقفوا يتحدّثون، على أريكة الحجر نفسها جلست الأم وأخذت تلطم فجأة، جذب الأب يديها وصرخ، باعد الأخ بينهما. ظلّوا هناك، يتجادلون ويصرخون ويسكتون، حتى غابت الشمس، ركبوا سيارة أجرة عتيقة، ورحلوا.

- سلام.

نظرتُ إلى هبة، فتابعَت:

سأرجع الشغل.

- ليسوا عيالك.

نظرت إليّ.

- الأربعة، إخوتك، صح؟

تسكت لحظة وتقول: تقريبًا.

ثم تكمل بلهجة متحدّية:

- وهو ليس صديقك.

وأشارت نحو مقعد الحجر:

كان أخاك؟ صح؟

وعادت تصوّب نحوي إصبعها: لستُ غبية.

كان؟

ارتبَكَت قليلا: يعني، بعد ١٧ سنة.

ثم نهضت قائلة بخفوت: من يعلم؟ لعلّه بخير.

أومأتُ برأسي مبتسمًا، فتحرّكت، ثم وقفت فجأة، التفتت إليّ، وغطّت فمها بيدها، واتسعت عيناها لأقصى حد.

الخروج من الليل

كنت أستجيب أحيانًا لدعوة صديقي سيد، لمشاركته بعض أفضل الأنفاس الزرقاء في غرفته التي ارتجلها فوق سطح بناية بحي العجوزة، اعتدت النظر إلى تلك اللحظات من الغياب على أنها وسيلة بريئة لتفريغ الكبت الهائل بداخلي، ولا أذكر متى بدأت أتناول معه بعض الحبوب الصغيرة، لكن المؤكد أنني أنكرت أمام نفسي مدى تورطي التدريجي، حتى جاءت الليلة التي زرته فيها بعد انقطاع، وتناولنا ما تناولنا، وبدأت أرى بعيني حروف الكلمات التي أنطقها وهي تتصاعد متموّجة في سماء الغرفة، فقررت هنا أن أغادر، ولا أذكر من تلك اللحظة سوى أنني وصلت الباب بعد تعثر، لأنني حاولت المرور من بين العديد من الأشخاص المتخيَّلِين.

مشيت متثاقلاً حتى وصلت إلى أسفلت الكورنيش البارد، وبضربة حظ أوقفت سيارة "ميكروباص مسرعة ونصف خالية، جلست في المقعد خلف السائق مباشرة، وكنت أظن أنني أفيق تدريجيًا، لكن ما حدث أن موبايل السائق رن فجأة بأغنية أسمهان "يا حبيبي تعالى الحقني شوف اللي

جرى لي   ولم يكن ما أدهشني أنها كانت نفس النغمة التي خصّصتها لموبايلي، بل أن السائق ردّ على تليفونه وناولني إياه قائلا: المدام!

تناولت الهاتف مستغربًا، وجاءني صوت سلوى تطمئن عليّ، وداخلني ارتباك لأنني لم أتزوج "سلوى   أصلاً، بل هي الوحيدة التي رفضتني عدّة مرات، وقبل أن أجيبها طلبت مني النزول، ومقابلتها عند ناصية ميدان سفنكس.

انتظرت في الميدان متوجّسًا من خوائه المقبض، حتى جاءني رجل بوليس وسألني "مستنّي حد؟"

دقّ قلبي بقوة، خاصة أن الشرطي كان يحدّق في عيني مباشرة، وعرفت أنه سيدرك أنني مخدّر بمجرد أن أنطق، فهززت رأسي نفيًا، وتحركت سريعًا باتجاه سور السيرك القومي عائدًا إلى الكورنيش، وسمعته ينادي علي فأسرعت من خطوي، ولكن شرطيًا آخر جاء من الناحية الأخرى، وخلال ثوان كنت محتجزًا في مؤخرة سيارة بوليس زرقاء، أتمتم بكلمات لا علاقة لها بالموضوع، وفي لمحة يقظة نادرة تفاءلت بأنهم لم يأخذوني إلى تحليل دم، وبالتالي ففرصتي كبيرة في البراءة، لكن الأمر كان أبسط من ذلك، لأن أحدهم جاءني بملابس مدنية لم تُخف هيئته البوليسية، وطالبني بدفع غرامة معقولة كي يُفرج عني، ولا أذكر بالضبط

كيف ومتى أخرجت النقود ودفعت، ولكنني كنت أمشي بعد ذلك بقليل وفي يدي إيصال أصفر لم أستطع أن أميّز بياناته، لأنها كانت تبدو وكأنها تتبدّل كل قليل.

مشيت يسارًا، وعبرت بين زحام نادر لمقاعد مقهى ساهر، قبل أن أخوض في خواء جديد، وأمام ناصية المعهد البريطاني لمحتُ سلوى واقفة تنقل ساقيها بقلق، وقبل أن أسألها لماذا تنتظرني هنا بدلاً من المكان المتفق عليه، جذبتني من كفي وأسرعت، مشيت معها وأنا ألاحظ أن تلك ليست ملامح سلوى بالضبط، ولكنني لم أسأل، مررنا من جديد قريبًا من سيارة الشرطة المتوقّفة، فارتجف قلبي، لكن شاغلي السيارة بدوا مكتفين بعالمهم الخاص، فلم يصلنا منهم سوى رائحة لاذعة وكريهة، وعندما اقتربنا من ميدان الكيت كات مرّت بجوارنا شلّة شبان صاخبة، صمتوا عندما عبرنا وسطهم، وتأملوا سلوى بتنمّر، لكننا كنا ابتعدنا قبل أن يحسموا أمرهم، بدأت أشعر بدوخة، وحاولت أن أتكلّم، لكنّ لساني كان لا يزال ثقيلاً، واكتشفت أن كفي خالية، وأن سلوى توقفت عند كشك جرائد، وعادت بسرعة وأعطتني جريدة مفتوحة على صفحة وجدت فيها صورتي إلى جوار قصيدة جديدة، انتعشت للحظة، ثم اكتشفت أن المنشور ليس قصيدتي بل واحدة من القصائد التي أفضّلها لشاعرة كنت أحبّها في الماضي من طرف واحد، لكنني سكتّ ولم أقل ذلك لسلوى، بل تابعنا

طريقنا وصعدت وراءها مدخل عمارة ما زالت في مرحلة الإنشاء، لم يقابلنا سوى خفير نائم فوق تبّة رملية صغيرة، وعندما تسللنا بجواره في صمت، وجدته يشبه أحد أعمامي الذي توفي منذ سنوات، فازداد الرعب بداخلي متحالفا مع الظلمة في المدخل، وخطر لي فجأة أن ما أعيشه أقرب إلى كابوس منه إلى الهلاوس، لكنني قدرت أنه لو كان كابوسًا كنت سأستيقظ غالبًا في أثناء احتجازي لدى الشرطة، كنت أصعد وسلوى سلالم إسمنتية مرتفعة، وليس لها درابزين، وبعد عدة طوابق، توزّعت فيها شقق تحت التشطيب، دلفنا من إحدى مداخلها المفتوحة كهوّة شرسة، وفي الداخل شعرت أن الشقة المظلمة أضيق من اللازم، لكن سلوى كانت تتحرك بين جدرانها بمرح، و اختفت فيما يبدو أنه سيصبح غرفة نوم، لكنها لم تخرج منها، دخلت وراءها فلم أجد أحدًا، عدت إلى الخارج منصتًا فلم أسمع صوتًا، وبدأت أشكّ في أنها كانت معي أصلاً، لكنني سمعت أَصوات أقدامها الخفيفة تصعد إلى أعلى، فخرجت مسرعًا، وصعدت السلالم قبل أن أتعثر بعرق خشبي، قمت وأنا أشعر باللزوجة الساخنة لدماء تسيل من مكان ما في نصفي العلوي، عاودت الصعود وكدت أستند إلى الدرابزين لأنني نسيت أنه غير موجود، صعدت وصعدت في السلم الدائري حتى بدأت أسمع أصواتًا وسعالاً وقهقهة خافتة، في الدور الأخير وجدت مدخل سطح مفتوحًا، خرجت و لم أفهم

وجود العشرات من أطباق "الستالايت" في هذه العمارة الخالية، كانت أمامي غرفة دون مداخل، دُرت حولها حتى وجدت الباب، فدفعته ودخلت، وبعد لحظتين كنت ممدّدًا على الأرض وأمامي سيّد يحاول أن يفهم سر الدماء التي تسيل من وجهي، تلفتّ حولي فوجدت أصدقاءه ينظرون لي بأعين غائمة، وكان هناك ماء يرشّونه على وجهي، ثم شعرت بكمّادة، واقتربت من أنفي روائح لاذعة، بدأ نبض قلبي ينتظم، لكنني كنت لا أزال بعيدًا عن الإفاقة، وغفوت لثوانٍ، ثم استيقظت فلم أجد أحدًا في الغرفة سوى سيد، ينظر إليّ بقلق قبل أن يقول أنه سيذهب ليأتي بطبيب صديق، أردت أن أسأله لَمَ لا يتصل بالطبيب ليأتي، لكنني كنت واهنًا، فراقبته يغادر بسرعة.

هدأتُ بعد قليل، وشعرت أنني أتحسّن، فقررت الخروج لاستنشاق هواء السطح، فتحت باب الغرفة ثم تجمّدت من الرعب، إذ انفتح الباب على فراغ يُطل على الأرض من ارتفاع شاهق، وكأنه باب شرفة ولكن دون شرفة، عدت مفزوعًا إلى الخلف، واتجهت إلى الجدار الآخر حيث وجدت شباكا صغيرًا يطلّ من ارتفاع مترين على أحد ممرات البناية، حشرت نفسي وقفزت بصعوبة، وارتطمت بالأرض بضجيج مكتوم، مشيت في الممر إلى نهايته، فوجدت زحامًا من موظفين وأطباء ورجال شرطة، وقلت لا بدّ أنني في مكان رسمي ومهم جدًا.

وقفت لثوانٍ أتنفس بهدوء، وفكرت في أنني لو تحرّكت بهدوء وثبات وثقة، فسأخرج من هنا دون أن يشكّ بي أحد.

جمعة

عم جمعة قاتل، قاتل فعلا، وهو حتى لا يخفي ذلك، ليس سفّاحًا طبعًا ولكنه قتل مرة واحدة، قبل أن أسكن هنا بسنوات لا أعرف عددها، ولم يكن يدهشني أنه قتل، لكن أنه يتحدّث عن ذلك بأريحية، لا يتفاخر ولكنه قد يلوّح بقبضته التي أَرْدَت القتيل مُردّدًا في أثناء حديث ما "ورحمة الروح دي"، فيستقبل الناس قسمه مؤمّنين بخشوع، وأنا أتلفت بينهم كالمجنون مدركا أنهم يقصدون الروح التي أزهقتها تلك اليد الخشنة.

غالبًا ما نكون جالسين في أي من زوايا الحارة التي سكنتها مضطرًا، كمعبر بين مرحلتين في حياتي، تتنقل الرطوبة لاهية بين ظلال البيوت، فيراوغها السكان المعدودون، ويختارون كل يوم أو يومين ظلّ بيت يرشّون أسفله بالماء، ويكركرون بالأرجيلة تحته بعد الغروب، ونتحدّث حديثا عاديًا كنت أطلّ عليه من أعلى في البدايات ثم صرت مندمجًا فيه كواحد منهم لولا حكاية القتل هذه.

– قاتل قاتل؟

فيجيب السبّاك أو النجار أو البقال بالإيجاب، وبلا كثير اهتمام.

في أثناء مشاجرة؟

يفسّر لي البعض أن جمعة كان يعمل بالفاعل في منطقة ليست بعيدة، وانفعل على زميله قبل سنوات فصرخ "والله أقتله، والله "، واندفع نحوه على مرأى الشهود، ورفع قبضته الصلبة ونزل بها –كمطرقة– على رأس زميله، فطبّ ساكتًا، ولكن أهل الحلال "لمّوا الموضوع"، أضرب أنا كفا بكف، وأتساءل –بحذر– عن البوليس.

بوليس؟ هأو!

يجيبني هازئًا أي شخص.

دكان صغير، صغير جدًا لو كان في منطقة محترمة لما سمّوه دكانًا، لكن عم جمعة يجلس أمامه بكرسيه الخشبي في النهار، بعد أن تاب الله عليه من رفع "أشولة" الرمل، هو لم يذهب بعيدًا، إذ يبيع الجبس والأسمنت الأبيض ويصنع لنفسه الشاي من "سبرتاية" صغيرة، ويدعو الرائح والغادي بإصرار أحيانًا، وبشكل عابر أحيانًا أخرى، حسب المزاج، ومرّة كنت عائدًا وفي قدمي "الشبشب" وبيدي كيس العيش، فأصر علي وجلست مُحرجًا، وشربت شايه الثقيل، وأنا أراقبه محاولاً ألا أفتح معه الموضوع،

لكنه انشغل باستخراج قشّة خشبية صغيرة من أسفل ظفره، اقشعر بدني وأنا أرى نصفها يخرج مدممًا، ولكني لم أعلّق، أما هو فقد تأمّل كفّه، وأشار إلى حبة غامقة قبيحة في أسفل الكف

من يوم القتيل.

قالها هكذا "القتيل"، وكأنه لا علاقة له بالموضوع، ويهز رأسه "مش عارف والله"

تذاكيت، وحاولت أن أسأل سؤالاً ذا معنيين، أشرت نحو كفّه وسألته "بتنام؟"

هزّ رأسه مستهجنًا "آه والله، بنام، أمّال إيه"

ثم قاطعنا عابر من الجيران، وجلس على مدخل الدكان متحدثًا عن المحطة الجديدة، فقمت في ثيابي البيتية عائدًا لحجرتي في المجمّع السكني العشوائي، متران في متران يحسدني عليها بعض الجيران، وكنت أنام في جانبها الأيمن وراء الباب، أو كنت أتمدّد غالبًا، لأنني لم أنم بعمق أبدًا في هذا المكان، وفي الصباح أتوجّه لعملي -الذي كنت أتمنى أن يكون مؤقتًا- فأتحرك مع آخرين من أهل المنطقة إلى أول الطريق السريع، ومن هناك نستخدم سيارات أجرة ربع نقل إلى المحطة شبه الصحراوية، فنركب

الأوتوبيس من بداية الخط، والعمل ينتهي عند الخامسة، فلا أصل حجرتي قبل الثامنة، وبين وقت وآخر -وخاصة عندما تمرّ فترة لا أرى فيها الأصدقاء- أكاد أتواءم نفسيًا مع المعيشة هنا، تعوّدت على البيوت الرثة والثياب الرثة والشوارع المكسّرة، ثم إن القمامة أصبحت في كل مكان فلا فرق، ثم إنهم هنا وبسبب ألفاظي الغريبة عليهم ينادونني "يا دكتور لكني مرّة أو مرتين ضبطت في نفسي شهوة نحو فتاة تبيع الليمون على الناصية، فقلت لكل شيء حدود، وكنت أخرج وأقابل معارفي ولا أحكي لهم عن جاري القاتل، "قاتل؟" هكذا أسأل نفسي أحيانًا بذعر من اكتشف أنه تعوّد على الموضوع، قاتل وينام بلا مشاكل، إذن فكل شيء ممكن، وأسأل عن القتيل فأجابني البعض "كان شاب حلو بل في مرة جاءت سيرته أمام عم جمعة فأمّن على الكلام كعادته "آه والله بصحيح"، نفث دخان سيجارته وهو يهز رأسه متعجبًا من أحداث الدنيا.

ثم أَصبحت أقرأ الحوادث في الصحف بعين جديدة، وأتحرّى بعقلي- ما بين السطور، فأقول لا بدّ أن الحقيقة غير ذلك.

ثم صادف أن كنت عند شقيقتي، وأنهينا الغداء وجلست وحدي في الصالة متابعًا التليفزيون بعينين متخمَتين، فإذا بهم يستضيفون عشماوي، كان يتحدث فيهتزّ شارباه الضخمان صعودًا ونزولاً، ويشير نحو باب

غرفة الإعدام، والمذيعة تسأله منبهرة فيقول عن كل متهم "الله أعلم تتأكد منه المذيعة فيقول "اللي بيجي هنا أكيد مجرم، طبعا أمّال إيه؟"

ثم يردف مجدّدًا "والله أعلم

قمتُ من أمام الشاشة غاضبًا، وناديت أختي، وأعلمتها برحيلي، جذبت الباب ورائي وفكّرت أن المرحلة التالية من حياتي قد تأخّرت، ونمتُ ليلتها نومًا متقطعًا، وفي الصباح في أثناء خروجي للعمل، سألني أحد جيراني عما إذا كان لديّ شيء لآلام الظهر، كان لديّ مرهم مسكّن لا أعلم مدى جدواه، ولكني خفت أن تهتزّ صورتي كـــ "دكتور"، فعدت إلى الحجرة وأعطيته المرهم، وشرحت له التعليمات باللغة الحاسمة التي سمعتها بها من شخص لا أذكره، تناول الرجل المرهم كمن يتناول كنزا، وضعه في جيبه بحرص قائلاً بفرح "بالليل، أدهنه واتدفى

وذهبت إلى العمل، وعدت، وفي اليوم التالي لم الرجل، ولكني فوجئت بعم جمعة واقفا في مدخل البيت، ابتسم بأسنان مسودّة وهو يفتح أمامي كفه الكبيرة، أشار شاكيًا إلى الحبّة الدميمة، وسألني عن المرهم، أردت أن أقول إنه نفد، لكني أمام تحديقه- وجدت نفسي أقول إنني سأتصرّف، ربّت كتفي بعرفان واثق، وبشكل ما شعرت أني أتواطأ معه على الجريمة.

الأيام المفقودة

بين أرفف مكتبتي، كنت أبحث عن كتاب ما، عندما عثرت يداي على قاموس "إسباني- ألماني"، سحبته وتطلعتُ فيه مندهشًا، لا أجيد أيًا من اللغتين، ولا يقيم معي أحد، كيف ومتى جاء إلى هنا؟ ثم نسيت الأمر تمامًا، ولم أتذكره سوى فيما بعد، حين رأيت فتاة في المترو تحمل كتابا أجنبيًا ما، فتذكرتُ الواقعة البسيطة فجأة، لكنها كانت قد احتلت مكانها آنذاك وسط الوقائع الأخرى.

لكني بين هذا وذاك كنتُ في عصريّة متربة أؤدي مهمّة عمل للشركة في إحدى المصالح الرسمية، طلب مني الموظف أن أنتظر قليلا وغادر المكتب، الباب المفتوح يطل على قاعة شبه هادئة، وبعد دقيقة مر أمام الباب رجل ثلاثيني في حلة سوداء، ألقى نظرة سريعة عليّ وهو يعبر، ثم عاد فجأة وحدّق بي مندهشًا، اقترب بتردد طفيف وسألني:

- أستاذ ....؟

وذكر اسمي، فأجبت بالموافقة، وتفرستُ في ملامحه لربما تذكرت من هو، فلم أفلح، أما هو فقد تهلّل وجهه، وبدأ يسألني عن الأحوال، عن المنطقة التي أُقمتُ فيها صغيرًا، وعن المدرسة الثانوية، وعن بعض المدرسين، وكان كلامه صحيحا لكني كنت أومئ برأسي كأبله، دون أن أتذكّر شخصيته إطلاقا، أو أي حادثة تجمعني به، وسرعان ما أنقذني الموظف بعودته، فنهض الثلاثيني، وألحّ في تبادل أرقام التليفونات، تبادلنا الأرقام وغادر المكتب، وغادرتُ المكان، وأنا أعتقد أنها واحدة من تلك اللقاءات التي لن تتكرّر، ربما تلقيت منه اتصالا أو اثنين، سأجيب الأول وأتجاهل الثاني، ثم أنسى الأمر.

لكنه لم يتّصل، وبعد أيام عدت إلى هناك مرة أخرى، أنهيتُ المعاملات، وفي طريق خروجي انتبهت للغرفة على يسار الممر المؤدي إلى الخارج، كان هناك، جالسًا إلى مكتبه بالبذلة ذاتها، محدّقا نحو الباب بشرود، ألقيت التحية عليه، فاكتفى بهزّة رأس خفيفة، غادرتُ مندهشًا ومسرعًا.

لكن شيئا من هذا القبيل تكرّر فيما بعد، كنت أجلس على رصيف محطة المترو، حين أشار إليّ رجلٌ من على الرصيف الآخر وهتف باسمي مبتسمًا، كان طويلا نحيلا يحمل حقيبة ما، رددتُ له الإشارة بدوري،

محاولا الابتسام، ثم اقترب المترو من ناحيته فأخذ يشير بكفه المضمومة وقد مدّ سبّابته لأسفل وهو يهتف شيئا من قبيل: بُكره؟

لم أجد ما أقول، ووصل المترو المزدحم فأخفى الرجل، ثم جاء القطار من ناحيتي، فواصلت طريقي إلى المترل، مشيت من المحطة إلى البيت وقد تذكّرت رجل الحلّة السوداء، كانت عربة نقل ضخمة تسد الطريق محاولة المرور، وقفت منتظرا عبورها وتطلعت في مرآة سيارة متوقفة، انعكست صورتي مشوّهة في المرآة التي كتب عليها بخط أسود: أبعاد الصورة غير حقيقية. عبرت السيارة النقل أخيرًا، فقطعتُ الشارع نحو باب البناية، في المدخل كان البوّاب واقفا يتطلع إليّ كأنّما ينتظرني، قال إن صاحب الشقة يريدني أن أمر عليه.

"يا فتّاح يا عليم"، قلت في سرّي وأنا أومئ للبوّاب برأسي، صعدت إلى شقتي أولا، وأعددت لنفسي فنجان قهوة، شربته ببطء، متمنيًا ألا يكون الرجل كالعادة يحاول زيادة الإيجار، انتهى الفنجان، فدخلت لأتبول، غسلت يدي وهندمتُ قميصي قليلا، ثم اتجهت إلى الباب.

في الطابق الأخير من البناية نفسها، يسكن صاحب البيت الذي تخطّى الثمانين، واصل المصعد رحلته الطويلة إلى الطابق العشرين، فتح لي الباب شاب صغير، خمنتُ أنه أحد أحفاده، عاد الولد وقال لي: تفضّل،

ووجدت الرجل في جلبابه الواسع واقفا على مدخل الصالون يرحّب بي: تفضل، تفضّل، أهلا أهلا، تفضّل، ماذا تشرب؟ أهلا. طريقته السريعة المعتادة في الكلام.

الصالون أقرب إلى شرفة، بنوافذه الواسعة التي تحتلّ الحائط كله، وتُشرِف على المنطقة كلها، جلستُ على طرف الأريكة، بينما استراح الرجل بجسده الضخم على مقعده الواسع في مواجهة الباب، وهو لا يتوقف عن السؤال: قهوة؟ شاي؟

لكن الخادمة دخلت بكوب عصير البرتقال المعتاد، وخطر لي فجأة أن الرجل ربما لا يريد زيادة الإيجار، بل استعادة الشقة نفسها، ربما ليزوّج فيها أحد أحفاده العديدين، حدقتُ في كوب البرتقال، وقد داخلني القلق، ثم انتبهت لهمهمة الرجل المتسارعة: لكني أشهد والله أنك من أفضل السكان عندي، وقلت لهم هذا رجل محترم ويعرف ربنا.

رفعت نظري إليه باستغراب، لكن الرجل ابتسم فجأة وأطلّت نظرة ماكرة من عينيه المتغضنتين وهو يقول: وأنا كنت شابًا مثلك أيضًا، هه؟ لم أولد عجوزًا، قال وضحك لنفسه.

بقيت أحدّق فيه متمتمًا بلا شيء، وهو يواصل: لكن قلت لهم، رجل محترم وكل ضيوفه محترمون، أنا أشهد بذلك، منذ متى تسكن عندي يا أستاذ؟ هه؟ سبع سنوات، ثماني سنوات؟

وجدت أخيرًا شيئا أقوله: نعم، حوالي ٨ سنوات.

أخذ يهز برأسه: وربما أكثر، لم يصدر منك مشاكل أبدا، أشهد بذلك، لكن السكان، أنت تعرف السكان، طبعا لهم أطفال، أطفال مزعجون والله كأحفادي، ضحك مجددا، يزعجون البناية كلها ثم يشكون من ضوضاء رجل محترم مثلك.

قلت مستهجنا: ضوضاء؟ أنا؟

أجاب وهو يشير نحو كوب العصير لأشرب: عالم مخابيل، دعك منهم، لكن نحن جيران في النهاية، نراعي بعضنا، أليس كذلك؟ طبعا، أنت أبو الذوق والأًصول كلها، لا أقول لك لا تستقبل أحدًا، لا أنا ولا غيري له أن يقول ذلك، لا أُقول لك لا تقيم حفلات، لكن يعني الصوت، هذه عمارة مزعجة لكن جيرانك ينخمدون مبكرًا، ناس مملّون، هه؟ وضحك مرة أخرى.

لم أكن في الواقع أستقبل أي ضيوف منذ شهور، وبدأ قلق حقيقي يراودني وأنا أتطلع فيه محاولا التجاوب معه، وحاولت أن أقول شيئا لكن

أحد أحفاده فتح باب الصالون وأخذ يناديه بإلحاح، فنهض ببطء من مقعده، وأوصلني إلى الباب وهو يردف: لكن بيني وبينك، بصراحة والله، أنا نفسي لم أستطع أن أنام بالأمس، بيننا عشرة أدوار، و لم أستطع أن أنام، لكن شرّفتني والله.

"أمس؟"

ظللت أردد الكلمة وأنا أهبط في المصعد، وقلت لنفسي: "هذا الرجل وأنا، أحدنا مخبول كنت بالأمس تحديدا قد التقيت الأصدقاء على المقهى، ودخلنا السينما، وعدت متأخرا إلى النوم، ثم صباحا إلى العمل، وداخلني لأول مرة مزيج غريب من الاطمئنان والدهشة، ثم خاطر جديد مزعج: إذ ربما لم يقصد الرجل أمس تحديدًا، ربما أول أمس أو شيئا من هذا القبيل.

كنت أفكر في ذلك وأنا أتمشّى في الشقة بلا سبب محدد، وقلت متهكما: حفلات؟ لا أذكر حتى آخر مرة طلبتُ فيها البيرة من الخارج، جلست محدقا في السقف، ثم اتصلت بأحمد الذي كان معي بالأمس، أجاب، فأخذت أناقشه حول الفيلم الذي دخلناه أمس، كأنني أردت الاطمئنان أنه لم يكن وهما، اتفقنا على لقاء قريب، وأنهينا المكالمة وقد هدأتُ بعض الشيء.

لكن الجنون استمرّ، في المكتب كنت أفتح بريدي الإلكتروني، وجدت رسالة من الشركة المنافسة لشركتنا:

"الأستاذ...

نهنئك باجتياز المرحلة الأولى من اختبار التقدم لوظيفة...

تم تحديد موعد آخر للمقابلة الشخصية يوم

مع تمنياتنا بالتوفيق

حدقتُ مفتوح الفم في الرسالة، وأعدت قراءة اسمي مرارًا، ثم فتحت صندوق الرسائل الصادرة، لم أجد أنني أرسلت أي رسالة إليهم، واقترب مني أحد الزملاء فأخفيتُ الصفحة، وبعدما ابتعد، قررت مسح الرسالة، لكني عدت في اللحظة الأخيرة ودوّنت البيانات والتاريخ في ورقة صغيرة، أودعتها محفظتي، ثم حذفتُ الإيميل.

وفي الطريق نظرت فتاة إليَّ فابتسمت لها، لكنها أعادت إليَّ نظرة غاضبة، واتضح أنها كانت تنظر إلى شخص خلفي، فأسرعتُ الخطى محرجًا، وفي البيت أخذت أفحص أوراقي وجداولي، وأخرجت الصور القديمة، كنت دائما شخصا منظّمًا إلى حد لا بأس به، ليس في حياتي فترات ضائعة أو مشرّدة أو مفقودة، في الأجندات والدفاتر أدوّن عادة

مواعيدي، وبعض اليوميات من حين لآخر، ليس لي تاريخ مرضي أو شيء من هذا القبيل، فهل يبدأ الآن؟ أخذت نفسا عميقا، ثم تطلعت إلى الموبايل الساكن على الطاولة، تناولته، ثم فتحت مخزن العناوين وأخذت استعرض الأسماء، أعرفها وأذكرها جميعا بوضوح، ليس فيها اسم غريب أو لقب منسيّ، عدا اسم واحد حاولت تذكّر صاحبه، ثم تذكرت: الرجل الثلاثيني ذو الحُلّة السوداء، لكن لو كلمته سيعيد إليّ سيرة المدرسة القديمة دون أن أتذكره، فلِم أحرج نفسي بلا فائدة، أعدتُ الهاتف مكانه، ثم التقطته وأخذت نفسًا آخر واتصلتُ بأمّي، رن الهاتف مرات ثم أجابت، أغمضتُ عيني متحملا اللوم المعتاد، ومتوجّسًا من أن تفاجئني بشيء آخر لا أتذكره، لكن المكالمة انتهت بسلام.

وبعد أيام قابلني أحمد بالقرب من الميدان الصغير حيث يسكن صديقنا الذي عاد أخيرًا من السفر، سألته ونحن في الطريق إلى بيت الصديق عما يحمله في حقيبته، أجاب: نبيذ، وأنت؟

هززتُ حقيبتي: لا شيء، برواز صغير للبيت، الكحول مسئولية المسافرين. ابتسم ونحن نطلع في المصعد، حدقتُ في المرآة اللامعة، محاولا أن أطرد من ذهني حادثة الأمس المرعبة، عندما فتحت الباب لأجد شخصًا يسلمني طردًا رفيعًا، وجدت اسمي الكامل على المظروف، تسلّمت

الطرد محاولا إخفاء استغرابي، فتحته فإذا به ورقة أشعة طبّية من معمل شهير، عليها اسمي مرة أخرى، وتحته كلمات منقوشة بخطوط الأطباء الغامضة، ألقيتُها على الأرض، وجلست على الكرسي القريب مذعورًا، ثم حسمت أمري وقمت فالتقطت كل شيء ومزقته، أشعلت النار فيما تبقى وتركتها تذوي في قاع المرحاض.

دخلنا شقة الصديق العائد، حضور قليل وموسيقى هادئة، رحّب بنا الصديق بحرارة، وعرّف الحضور ببعضهم بعضا، إحداهن امرأة قصيرة جميلة، تطلعت إليَّ بابتسامة وهي تمسك بكأس نبيذ أحمر، حين صافحتها عرّفها الصديق باسمي فأومأت برأسها وابتسامتها وهي همس: طبعا، طبعا!

ابتسمتُ لها مجاملة، لم يعد الأمر يثير دهشتي، استمرت السهرة هادئة ودافئة، ثم أصر بعض الحضور على متابعة حدث تليفزيوني ما، جلستُ بكأسي بعيدًا عنهم بجوار الشرفة، وتناهى إلى سمعي صوت ارتطام في الشارع، خرجتُ إلى الشرفة ووجدت سيارتين تقاطعتا عرضيا، وأصوات شجار تناهت خافتة إلى حيث الشرفة الشاهقة، كدت أعود إلى الداخل ولكني التفت فوجدت المرأة الجميلة بجانبي تتطلّع مثلي، ثم تطلعت إليَّ

وابتسمت مرة أخرى، مدّت يدها فجأة إلى رأسي وأمسكت بخصلة بيضاء من شعري، وهمست عابثة: ها أنت كبرتَ يا عجوز!

تطلعتُ في عينيها المرفوعتين نحوي، و لم أجد ما أقول، فهززت كتفي وقلبت كفي لأعلى مبتسمًا، ثم خطر لي خاطر فسألتها: هل تجيدين الإسبانية، أو الألمانية؟

عقدت حاجبيها مندهشة، وهزّت رأسها بالنفي، ثم قالت: لماذا تسأل؟

قلت :لا، أبدا.

وتطلعتُ مرة أخرى إلى الشارع بالأسفل، ففعَلت مثلي، كانت مشاجرة السيارتين مستمرة، ودوائر أوسع من الناس تتجمّع حولها، بينما صفوف طويلة من السيارات تطلق نفيرها احتجاجا.

آثار جانبية لمطر مفاجئ

لا هذه الرجفة جرّبها من قبل، ولا هذا الانفعال، وإزاء تلك وذاك لم يتمالك أحمد سوى أن يخرج للشُرفة المطلّة على المساء، محاولا أن يهدأ، متأملا الإمكانات اللانهائية التي ما زالت تتفتّح أمامه في مسألة بدأت كمُزحة، ثم انقلبت إلى حلم أكبر بكثير من المقاسات التي اعتاد عليها.

والغريب أن الموعد الذي بدأ كل ذلك لم يبد وقتها سوى خيبة لا تزيد في خيبتها على المعدل المعتاد، لمّا وقف ككائن بائس وصغير في مساء الميدان الواسع المزدحم مع أمل بسيط في أن تلبّي سوسن الموعد.

سوسن؟ كان يحتجّ في سرّه ضد اسمها القادم من سنوات لم يكن قد وُلِدَ فيها بعد، سوسن؟ ينطق الاسم فترتسم في خياله سنبلة وفستان أخضر واسع وسذاجة ريفية، وهي لم تكن تنتمي إلى هذا كله أو أي منه، سمّوها بنفس اسم قريبة عتيقة، فبدت كأنتيكة وسط شقيقاتها العاديات: أميرة ودعاء وشيماء، كان يخجل من سوسن أمام نفسه، فكيف به أمام معارفه، لكنها على أي حال لم تكن خطيبته ولا قريبته، بل تعمل في محل الملابس

بالقرب من المطعم الشعبي الذي يعمل فيه، شاغلها أول مرة فخرجت وتمشّت معه بـــ"الشبشب" الذي ترتديه في المحل، لكنها احترمته أكثر في المرة الثانية، فارتدت حذاء. ثم هو لم يكن عاشقًا ولا حتى مؤهلا لزواج، وإنما أراد ولو مجرد لمسات ساذجة وكلمات تبدو رقيقة، فحاول في نفسه أن يجد خيطًا من العدل في العلاقة بين جمالها المحدود وهيئته التي تبدو مهملة مهما اجتهد في ضبطها، واليوم يفترض أن يكون لقاء ثالثا، فأعدّ نفسه لفسحة صغيرة معها في يوم إجازتها، وانتظر أن يراها لأول مرة بملابس وهيئة لم يُنهكها العمل، لكنها لم تأت، والميدان ازدحم وفرغ، وازدحم وفرغ، ويناير لم يبخل بزخّات مطر، والمسألة أنه لم يكن رومانسيا، وإنما خاف لو دخل أسفل واحدة من مظلات الميدان أن تأتي سوسن فلا تستطيع أن تراه أو يراها، هكذا وقف مستقبلا المطر فوق رأسه، ولم يكن في يده شيء يحتمي به، ثم دارت به لثوانٍ مشاعر حب لا أساس له سوى المشهد الذي وجد نفسه فيه، ومر الوقت وتأكد أنها لن تأتي، وربما كان المطر نفسه حجّة غيابها، فتحرّك مبتعدًا حتى وجد "الميكروباص"، فقفز فيه وعاد للشقة الضيقة التي لولا شرفتها الصغيرة لسحقتها البناية كعلبة كبريت فارغة.

دخل الشقة فجفف نفسه جيدا بالمنشفة، ووضع الماء في براد الشاي، ثم اكتشف أن أنبوبة الغاز فارغة، سبّ بصوت عال، ثم بدّل ملابسه

لينام، وفي اللحظة التي كان فيها يدخل تحت اللحاف، ارتعشت أنفه، وأطلق عطسته الأولى، فسبّ ثانية، ونظر من مكانه نحو البوتاجاز الصغير متحسّرًا على الشاي الذي لن يشربه، ثم قام وارتدى المزيد من الملابس والتفّ جيدًا داخل اللحاف على أمل دفء يحميه من نزلة البرد المتوقعة، ونعس سريعا، لكنه شعر بنفسه يستيقظ من حين لآخر وإن كان أشبه باستيقاظ داخل حلم، ثم غوص جديد في شبه غيبوبة، وعندما استيقظ صباحا، أدرك أن جسده استسلم للبرد والسخونة معًا، وسمع من الشارع دقات بائع أنابيب الغاز، فأطلّ من البلكونة ليناديه، فتح فمه فاكتشف أن صوته ضعيف لم يبتعد عن حنجرته سنتيمترات، زاد غضبه ودخل الغرفة مرة أخرى واستلقى على الفراش، ثم قام وبدّل ملابسه ونزل إلى الصيدلية القريبة، اشترى شرابًا للكحّة ومضادًا حيويًّا رخيصًا وفيتامين "سي"، صعد إلى الشقة واتّصل بالعمل ليعتذر عن الغياب، واستلقى في الفراش على أمل أن يتحسّن إذا التزم الراحة.

مرّت الساعات بين نوم وصحو وعرق، بالكاد كان يقوم ليتناول لقيمات خبز وجبن، ورغم أنه لم يكن يدخّن إلا أن البلغم خرج من صدره ثقيلا، وفي الصباح التالي شعر بنفسه أفضل، فنهض، لكنّه أحس دوخة عندما بدأ يرتدي ملابسه، وما إن خرج من باب البناية حتى أحس سخونة أذنيه، ثم بدأ في العطس مجددًا، فعاد للبيت، ومرت الأيام الثلاثة –

المخصومة من أجره- في شبه غيبوبة، في اليوم الرابع قام قويًا بلا سخونة ولا تكسير عظام، تفاءل وانتعش، ولكن ما إن خرج إلى الشارع وشمّ أول حبّة تراب حتى انكتمت أنفاسه، وبدأ السعال من جديد، حاول أن يتجاهله لكنه ازداد، وقضى اليوم في المطعم مُبعدًا أنفاسه عن الآخرين قدر ما استطاع، لكنه عانى من أجل أداء وظيفته التي تستدعي أن يرفع صوته مبلّغًا العاملين في المطبخ بالطلبات المدونة في "بونات" الزبائن، واستخدم أحيانا الإشارة مع الصياح، أو بدلا منه، ولكن الكحة زادت ومعها احتقان الزور، وظلّت رائحة التراب تطارده في كل مكان، وعندما انصرف ضحّى بمبلغ صغير ليستقل التاكسي، وما إن أغلق باب التاكسي حتى داهمته نوبة سعال جديدة، وفتح الزجاج كي يبصق منه فاكتشف أن صدره ارتاح عند فتح الزجاج، فتركه مفتوحًا رغم البرد، ولكن السائق لم يعترض خوفًا من العدوى، وفي البيت شرب المزيد من شراب الكحة دون جدوى ولا نتيجة سوى مزيد من السعال، وتذكّر فجأة أن سوسن لم تحاول أن تتصل، ولا هو فعل، ولكن كل ذلك بدا لحظتها غير مهم، ولم يتصوّر أن نزلة برد أصابه مثلها المئات طوال حياته يمكن أن تفعل فيه كل ذلك، وفي العمل ظل يجيب من يسأله بأنه ذاهب غدا بالتأكيد إلى الطبيب، لكن الأسبوع مرّ، واقترب الثاني من نهايته، وهو يتمنى أن يُشفى تلقائيًا، خاصة أن الكحة قلّت كثيرا، وانخفضت الحرارة، واختفى البلغم،

ولكن ظلّت ترافقه سعلة خفيفة كلما تكلم مع بحّة صوت، وظل يعاني من رائحة التراب في كل مكان، حتى أنذره زميل بأنه يخاطر بالإصابة بالحساسية الدائمة، فذهب للطبيب

العيادة شقّة متّسعة وقديمة فوق المطعم، كل شيء عتيق وشبه مترب، فازداد انسداد أنفه، وهيّج صدره، فأخذ يسعل، وبدا أكثر الموجودين تعاسة، أفزعه ثمن التذكرة لكنه كان قد قرّر ألا يسترخص، طالما ذهب للعلاج، وفي الاستقبال كان التليفزيون يعرض مسلسلا قديما، تابعه الممرض بشغف ثم أشار له فدخل، سأله الطبيب عن عمره وعمله، ثم أشار فاستلقى وخلع قميصه، وكله خوف من أن يطلب الطبيب تحاليل وأشعّات.

"خُذ نفسًا، خُذ نفسًا" يقول الطبيب بسرعة وهو يضرب جانبي صدره بأطراف الأصابع، ويكرّر ذلك مع ظهره، وأحمد لم يفهم أبدًا تلك الحركة، وطالما ضحك عليها كلما شاهدها، لكنه لم يضحك هذه المرة، وانتهى الطبيب ثم طلب منه فتح فمه، وأضاء بكشّاف صغير فتحة الفم وجوف الحلق، بينما شعر أحمد بخجل طفيف من حالة أسنانه المزرية، انتهى الطبيب وأعلن "ليست حساسية".

تنفس أحمد الصعداء، قدر ما سمحت به حالة صدره، تابع الطبيب: "احتقان في القصبة الهوائية، ولكن المشكلة في الحنجرة"

انتبه أحمد، وسأله الطبيب عن وظيفته بالضبط داخل المطعم، أخبره، فهز رأسه كأنما كان يتوقع، وأخذ شهيقا وبدأ يتكلم، بينما ارتفعت ضربات قلب أحمد، "الحنجرة والحبال الصوتية ملتهبة جدا"، تابع الطبيب، السبب زعيقك اليومي في المطعم، عندما تستخدم صوتك بشكل منهك تقترب الأحبال الصوتية من بعضها، فتحدث إصابة تؤدّي لتجمّعات دموية فوق الحبل الصوتي، ثم وقعت نزلة البرد، واحتقنت القصبة الهوائية فزاد الالتهاب، ولهذا تتكلم بصعوبة"

حاول أحمد أن يتابع كلام الطبيب فلم يستوعب أكثره، ولكنه شعر بأن مصيبة ما قادمة، و لم يخب ظنه، قال الطبيب إن عدم العلاج سيُسبب انسدادًا في الحنجرة، وقد يقطع التنفس، لذا لا بدّ من الجراحة، ثم ابتسم: هذه من أمراض المطربين، تعرف تغني؟!

في أثناء نزوله من العيادة، لم يكن يعرف إن كان يعاني دوخة المرض أم الصدمة، لم يُجرِ في حياته جراحة مهما كانت بسيطة، ثم إنه سيعاني كثيرًا لدفع التكاليف، وتذكر مزحة الطبيب عن الغناء فازداد غيظه، و لم يكن يغني حتى في الحمام لبشاعة صوته، وزاد من همه أن الطبيب أبلغه

بأن فترة راحة طويلة لأحباله الصوتية لا بدّ منها، سيعالج الصمت إذن بالمزيد من الصمت، ومرت أيام مقبضة، نجح فيها بشبه معجزة أن يدبّر التكاليف، صوته المتحشرج المتقطع أثار شفقة الدائنين، وتداخل الرعب والصدمة والإرهاق والمرض فدخل المستشفى ومرت إجراءات الجراحة كلها كأنها حلم، ثم تحقق أسوأ كوابيسه فصارحه الطبيب أن ثمة مضاعفات سببها خدش بسيط جدًا وقع في أثناء الجراحة، تكلّم الطبيب بمزيج غريب من الصرامة والحنوّ، خوفًا ربما من أن يقاضيه، لكن أحمد لم يكن من هذا النوع، ولا هو يتحمّل إجراءات التقاضي، ثم ماذا لو تدهورت حالته، من سيتمكّن من إنقاذه سوى الطبيب الذي أجرى الجراحة، ثم إن الطبيب وعده أن الخدش غير مؤثر أبدا وسيشفى بالعلاج البسيط والراحة، وانتظر أحمد أن يعلن الطبيب تكفّـــله بتكلفة علاج الخطأ، لكن الطبيب كتب روشتة طويلة، فلم يعرف أحمد أيها خاص بالخدش وأيها خاص بالجراحة، وانشغل هو فورًا بتقدير ثمن الأدوية وأخذ الروشتة وانصرف.

وعاد إلى عمله، ورغم أنه لم يكن متكلّما بطبعه، فقد جرّب صعوبة الصمت بالأمر، ووجدوا له في المطعم وظيفة مؤقّتة لا تتطلب الكلام، وظنّ الزبائن الجُدد أنّه أبكم، أما هو فراقب زملاءه المدخّنين وهم مرحون، يزعقون بحريتهم، فشعر بمزيد من الظلم، ولاحظ أن صمته دفعه

بالضرورة لسماع الكثير من الحكايات التي لم يستطع أن يقاطعها، وهرّب من سوسن فلم يظهر بجوار المحل الذي تعمل فيه، وتذكّر -مبتسمًا في داخله- أنها أظهرت تذمّرًا في لقاءيهما الوحيدين بسبب قلّة كلامه!

ومرّت أسابيع، ثم عبر مرّة من أمام محل "سوسن"، فوجده مغلقًا مرة وثانية، ثم وجده مفتوحًا، ولم يلمحها بالداخل، ولولا أن كل شيء بدأ بسبب موعدها لنسيها تمامًا، ومع ذلك فقد بدأ يفعل، وعاد صوته تدريجيًا يرتفع بخجل فيسمعه الناس، ومازحه البعض بأن صوته قد تغيّر للأحسن، فكان يبتسم ويجيب بأنها مضاعفات الجراحة، ووجد أن البحّة ما زالت موجودة نوعًا لكن دون ألم ودون اختناق، وفي عصر إحدى إجازاته فتح الشرفة فوجد الجو مليئا بالأتربة، سعل سعلة ذعر، وعاد للداخل، أغلق باب الشرفة، ثم بحث بين أغراضه عن بقية من دواء الكحة، وجد زجاجة تلوّنت فوهتها بما كان يسقط منها في أثناء استعماله لها، استعاد أنفاسه للحظة، ثم جرع رشفة من الزجاجة ووضعها مكانها، أعاد ترتيب الأغراض، واصطدمت أصابعه بشريط كاسيت قديم، تأمّله ثم ذهب إلى جهاز الكاسيت العتيق الذي لم يلمسه منذ مدة طويلة، أوصله بالكهرباء وشغّله، وتمدّد في فراشه مغمض العينين متناغمًا واللحن، همهم مع النغمات وشعر بصوته جميلا، وتذكّر مداعبات زملائه وابتسم، دندن بصوت أعلى، وإذ بنفسه معجبة حقًا بصوته، ففتح عينيه خائفا بعض

الشيء، قام وأغلق الكاسيت، ثم دندن الأغنية مرة أخرى، فارتفع صوته، متألقًا وجذّابًا باللحن والكلمات، دقّ قلبه بقوة رعب، دخل الحمّام، توقف أمام المرآة، وأعاد الكرّة كأنه سوف يرى صوته، عاد يغني اللحن مرة أخرى بعذوبة ليس فيها شك، ضحك ودمعت عيناه، وضرب كفا بكف، وهدأ قلبه ثم اضطرب مجددًا و لم يعرف ماذا يفعل أو يقول، حاول أن يغني لحنًا آخر وإذ بارتباكه يُنسيه ما يحفظ من أغانٍ، دخل وجلب شريط كاسيت آخر، وكأنّما خاف أن يخلّ بالأسلوب، شغّل الشريط أولا، وبدأ يهمهم معه بخفوت، ثم بصوتٍ عال، نفس النتيجة، أطفأ الكاسيت وواصل الغناء، وتخيّل مازحًا مع نفسه أن الجيران سيسمعون صوته فيطلبون منه إطفاء الراديو.

بدّل شريط الكاسيت بشريط آخر، ردد الأغاني الشرقية القديمة، لعلع مع الأدوار ومنها إلى الطقاطيق، وكان "ينشز عن اللحن أحيانًا، لكنه قدّر أن ذلك لقلة خبرته بالغناء، جلب موجة إذاعة شبابية وسابَق مطربيها بصوتٍ أجمل منهم بكثير، ثم أدار المؤشّر إلى أغانٍ أجنبية لا يفهمها، لكنه قلّد ضاحكًا نداءات مغنّييها، خاصة عند مقاطع المدّ الطويلة، وتوجّه إلى الشرفة المُغلقة، وتذكّر التراب، لكنه فتحها فلم يجد التراب، بل وجد الليل، فخرج متأملاً الشارع، وتطلّع في المارة وهم يمشون بالأسفل، وهمهم بلحن في سرّه مفتقرًا بعد لشجاعة أن يعلو

بصوته، وتذكر زملاءه في المطعم، وتذكر سوسن والطبيب والجراحة المضاعفات، وأخذ يتخيّل كيف سيفاجئ الجميع بصوته الجديد، وتسلل إليه خيط شك: أهي المعجزة أم الحمّى؟

رفع عينيه إلى السماء التي تبدو خيطًا رفيعًا بين البنايات المتلاصقة، تأمّل النجوم الخافتة وهو يحاول أن يكتم ارتجافة جسده.

الـدبيـب

استيقظ صاحب البيت الكبير الواسع، ذي الحديقة التي يتوسّطها البئر، فلم يجد زوجته، لكنه وجد أطفاله الثلاثة مذبوحين.

لم يُعثر على أثر للزوجة، ولم يعرف أحد سبب فعلتها، إن كانت حقًا قد فعلتها، لكن الرجل اعتكف في بيته الذي تحوّل بالتدريج إلى ما يشبه الخرابة، أُهمِلت الحديقة، تشرّخت الأسوار، تكسّرت النوافذ، غطّى التراب كل شيء، ولم يعد أحد يرى الرجل.

بعد عام، اختفى أحد أطفال المنطقة، وبينما يبحثون عنه، وجدوا ملابس الطفل الضائع، مغسولة ومنشورة على حبل في شُرفة البيت، ولم يجدوا الطفل أبدًا ولا الرجل، شدّدوا البحث، فرضت حراسة على البيت ظلّت تتراخى مع مرور الأيام.

وبعد عام، تكرّرت الحادثة مع طفل آخر، وساد الهلع.

خرجت الأمهات ينتظرن أبناءهن وبناقمن عند أبواب المدرسة، تلك كانت مدرستنا الابتدائية، المُطلّة على الفناء الخلفي للبيت، ومنها كنا نرى البئر العريضة، صاحبة الأسرار.

لأكون صريحا، كانت تلك حكايات تحكيها الأمهات، لا أعرف بالضبط مدى دقّتها، فقد كنّ بالأساس يخوفننا من كل شيء، وقد تلقّينا الحكاية، ورصصناها جوار أخواتها من حكايات، لا يختلف معظمها —في الجوهر– عن تلك الحكاية، وإنما يختلف فقط في الأسلوب، بين الشخص الذي يقول لك: تعال آخذك إلى ماما، أو المرأة التي تعطيك "حاجة حلوة"، هذا إذا تجاهلنا الحكايات الأقل واقعية، كالعفاريت والبعبع وأبو رجل مسلوخة، وغيرها مما شاركوا بصرامة في تربيتنا.

على كل حال، لم يُكتب لتلك الحكاية أن تستمر أطول، فقد غطّت عليها حكاية أخرى، نوجزها فيما يلي.

وقفتُ عند كومة الرمل العالية أسفل سور المدرسة، كانوا يجرون تجديدات أو توسيعات، لكنها كانت فرصتنا للقفز من فوق السور– كما اتفقنا ثم من فوق السور الآخر، والتسلل إلى البيت، والعودة قبل أن تنتهي الفسحة، ودون أن نوسخّ ملابسنا المدرسية، قدر الإمكان.

أخيرًا ظهر أحمد (سيحوّل اسمه بعد خمسة عشر عامًا إلى بيتر ليحصل على لجوء ديني إلى استراليا)، ومعه وليد (سيتحمّل خمس سنوات كضابط بوليس ثم يستقيل ليعمل بالمحاماة)، وأسامة (سيشنق نفسه في إحدى نوبات اكتئابه، لكن الصحف ستكتب عن أب لم يستطع تحصيل مصروفات العيد)، وبعد دقيقة ظهرت شيماء (ستعمل هنا مدرّسة حساب، لكن بعد أن تفقد هذه المدرسة الخاصة رونقها القديم)، ومعها هبة (عيون واسعة لا تخفي شيئا).

اختبأنا وراء جدار حتّى يمرّ الأستاذ عبد النبي (سيطرد بعض الطلبة المتنمرين من امتحان ثانوي تجاري، وبعد أيام سيُلقى عليه ماء نار، فيفقد بصره)، وميس سامية (لن تتزوج، ستقتنى القطط)، وتأكدنا من تواريهم في أحد مباني المدرسة، غالبًا لجولة تفتيشية أخرى، وانطلقنا نتسلق التلّة الرملية الصغيرة إلى الخارج، ومنها إلى فناء البيت، في سوره شرخ صغير جدًا (سيتم سدّه بعد أيام)، لكننا استطعنا المرور عبره، بعد أن تركنا حقائبنا في الفصول، ومررنا سريعا من خلف أعين إبراهيم بائع الكشري (سينجح تدريجيًا على عكس مدرستنا، ويمتلك محلا ثابتًا، بدلا من العربة، ثم عدة محلات).

الشجيرات قصيرة، لكننا أقصر منها، فاختفينا وراءها بسهولة، واكتشفنا أن شبابيك البيت التي كنا نرى قمتها من وراء السور تمتد

لأسفل إلى قرب الأرض، الشيش أخضر كالذي في بيوتنا، لكنه طويل جدا كأنه لأبواب، وأمام أحد الشبابيك توقّف أحمد (في الأصل فشلت هجراته إلى كندا، ولهذا اتخذ القرار الذي أفجع عائلته، فقاطعته، واكتفت بولديها الآخرين)، لحقنا به، ووجدنا المنفذ المكسور أسفل أحد الشبابيك، رأينا منه الحوائط في الداخل خضراء بدورها، أو ربما كانت تلك لعبة ظلال الضوء عبر الشبابيك.

تردّدنا لحظات، ثم تقدّم وليد (سيطرة فكرة الفن عليه كانت سبب عدم تحمّله البوليس الذي دخله بضغوط من والده، ولكنه بعد الاستقالة اكتفى بالمحاماة والمحاكم)، تسلّق النافذة القريبة، واختفى بالداخل، تبعناه، عدا شيماء (خدمها تعيينها بالمدرسة، أو أنها سعت إليه بسبب قرب المكان من بيت أمّها)، ظلت بالخارج، وكادت أن تقلّدها هبة (تفننت أمها في تسريح شعرها، بين الضفائر أو ذيل الحصان، وكانت تبدو جميلة في كل منها)، لكني مددتُ يدي إليها فصعدت، الأسقف عالية عالية، أعلى من بيوتنا طبعا، وأعلى حتى من أسقف المدرسة (كانوا قد بدؤوا يفطنون لاختفائنا، لكن لم يخطر على بالهم بالطبع أننا هنا).

الجدران خضراء فعلا، أو أقرب إلى الأخضر، لا أثاث تقريبا، ثمة قطع قماش متعفنة على الأرض، تحرّكنا بالداخل بحذر، الأبواب مفتوحة أو مواربة، وفي الممر بين الحجرات، وجدنا شيئا أشبه بخزانة، لكن ليس لها

أبواب (لم نعرف أنه راديو قديم سقطت أزراره)، عثر أسامة (بدأت نوباته العصبية في نهاية المدرسة الإعدادية) على شيء صغير في الأرض، أشبه بلعبة "النحلة"، لكنه لم يكن، مع ذلك وضعه في جيبه، وفي حجرة لها بابان وجدنا "نمليّات" معلّقة بالأعلى وحوض ماء متحجّرًا، عرفنا أنه المطبخ، لكن لم نجد بوتاجازا أو ثلاجة، البلاط هنا أبيض على عكس بقية الأرضيات الخشبية، ووجدنا نفس البلاط بالحمام، لكن الرائحة أبعدتنا سريعا.

عدنا إلى نهاية الممر، غرفتان مغلقتان، أمسك مقبض إحداهما أسامة (كان زواجه عن حب طويل ورائع رغم النوبات)، ضغط ولم ينفتح، ولم نقف أكثر بسبب نداءات الرجوع الصادرة من هبة (كانت —عادة– تقضم ساندويتشاتها بأناقة ممثّلة)، عدنا إلى الخارج بمزيج غريب من الإثارة وخيبة الأمل، عبر الشبّاك سمعنا بكاء شيماء (احترفت الابتزاز العاطفي بعد ذلك، لكنها هذه المرة كانت خائفة فعلا)، كانت جالسة على الأرض تسند ظهرها إلى الحائط أسفل الشباك وترتجف، وفي الواقع كنا أكثر منها خوفًا، لكننا كصبية نحاول أن نكون –أو نبدو– أشقياء، لم نفصح.

في لهفتنا كدنا ننسى أن نتفرّج على البئر، حتى ذكّرنا أحمد (لم يكن تحوّله الديني حقيقيًا، أو لم يكن كذلك بالضبط، فقد رفض -في الواقع- الأديان كلها)، وهكذا قرّرنا قبل أن نعود، أن نلقي نظرة سريعة على البئر، تعاونّا على جرّ حجر كبير "قياسًا إلينا" وصعدنا عليه، ونظرنا لأسفل.

ظلام لا أكثر، ورائحة تراب، نزلنا، الأولاد الثلاثة، وبدأنا العودة، لكن فوجئنا بهبة (لها نظرة لا تُقاوم) تريد أن تصعد وتنظر، تقدّمتُ فورا، كفارس، ومددت لها يدي، صعدَت، ونظرَت، وبدأ الأولاد يستعجلوننا، لكن هبة (التي اتضح أنها كانت أكثرنا لؤمًا) أخذت تصرخ فجأة "الستّ، الستّ"!

هلعنا جميعًا، هربوا وكدت أفعل معهم، لكن هبة (وذيل حصانها يرتعش جيئة وذهابا) مالت أكثر إلى داخل البئر، فأمسكتُ بها (وكانت أمي تهدّدنا دائما، إذا ما أطللنا برأسنا من نوافذ البيت، بأن الرأس أثقل أجزاء الجسد)، وهكذا، كان ما كان.

الأولاد حكوا ببكاء وهلع ما جرى، جاء الكبار مرعوبين، جاء الأهل وجاءت الشرطة وجاءت المطافئ، البئر – التي اتضح أنها لم تكن واسعة كما كنا نراها – تهدّمت في أثناء محاولات الإنقاذ.

بعد سنوات مجمع الشاري الجديد للمدرسة، توسّع، أنشأ مدارس التهم البيت وساحته، إلا أن ذلك لم يمنع اندثار مدرستنا، ليس تمامًا، ما زال يصلنا - أنا وهبة - دبيب طابور الصباح.



وقت مستقطع

يمكنني أن أؤكد، بلا أدنى شك، أنني أحببت علياء، بدءًا من الحادية عشرة مساء و٥٥ دقيقة بالضبط، في ليلة الأول من إبريل، أتذكر الليلة لأنها كانت عيد ميلاد أحد أصدقائي الذي نتندّر على تاريخ ميلاده كل عام بالطريقة التقليدية عيد ميلادك أم كذبة إبريل؟

ورغم أننا لم نستطع يومًا اختراع نكتة مضحكة فعلاً بهذا الخصوص، فإننا كنا نشعر دائمًا أنه من واجبنا أن نسخر من صديقنا العزيز كل سنة، ولكن ها أنا — كالعادة - أبتعد عن الموضوع.

أقول إنني أتذكّر بالضبط الدقيقة التي بدأت فيها أحب علياء، لأن أحد الحاضرين في عيد الميلاد سألني وقتها عن الساعة كي نطفئ الشموع، فكان متبقيًا على منتصف الليل عشر دقائق، خرجت لحظتها إلى الشرفة الواسعة، أشعلت سيجارة ورمقت علياء التي جلست فوق سطح طاولة ملاصقة لسور الشرفة، تتأمل الشارع الهادئ بالأسفل، وتؤرجح بهدوء قدمين حافيتين "ظلّتا تضيئان تدريجيا في ذاكرتي فيما بعد"، وقبل أن أصل

لنصف سيجارتي، قفزت علياء بخفة إلى صندل أبيض صغير، وانسالت إلى الداخل، فعبرت بجانبي، أو قل من خلالي لأنني شعرت فجأة بتيار مر في عروقي وملأ خلاياي كبلالين صغيرة، وفي نصف ثانية غمرني حب أكيد غير مشكوك فيه، كانت المرة الأولى في حياتي التي استطعت فيها أن أحدّد بهذه الدقة موعد بدء شعور معين، وقد تأكدت بنفسي من معظم أصدقائي المقرّبين، فقط المقربين الذين لن تتجاوز سخريتهم منّي نطاق الشلة، أن ذلك القياس الزمني الصارم للمشاعر ليس أمرًا شائعًا "على العكس من الجوع أو الصداع"، بل رأى بعضهم ممن لم يستطع منع نفسه من السخرية – أنه قد يدل على عيوب نفسيّة مرشّحة للتفاقم.

ولكن أغلب الظن، أن ما رسّخ التوقيت في ذهني، أن علياء وفي أول لقاءاتنا المنفردة مدّت يدها بلا سؤال لمعصمي الأيسر، وخلعت الساعة التي كنت أتطلع فيها كل لحظتين، لا لمواعيد مهمة أو شيء من هذا القبيل، بل كواحدة من حركاتي العصبيّة العديدة التي أخذت أفقدها بالتدريج في الأيام التالية.

ومنعًا للّبس، فإنني لم أكن في إحدى الحالات التقليدية للحب من أول نظرة، فقد قابلت علياء من قبل عدّة مرات، لكنني أحببتها فقط في تلك اللحظة المحدّدة التي ملأتني بشجاعة مؤقتة، لم يكن صعبًا معها أن

أجتذب حبّها، وقد بدأنا علاقتنا بزخم حتى أننا امتلكنا تاريخا مشتركا خلال يومين لا أكثر، وخلال الفترة التي ارتبطنا فيها، كان غريبًا أنني أصبحت شخصًا آخر تمامًا، بمنتهى السلاسة ودون أدنى اصطناع، فـــمثلاً لم أكن أنزعج – بصدق- من جلستها المسترخية في الأماكن العامة، ولا من جدلها المطوّل مع الجرسون أو شرطي المرور أو بائع الأنتيكات، ولا ضحكاتها المفاجئة العالية الحلوة في الشارع، كانت مدة انسلخت فيها عمّا يجري حولي واستطعت بتلقائية لم تتكرّر- أن أتجاهل، أو بالأحرى ألا أرى تحديق المارة، ولا أسمع تعليقات نسوة الأسواق الشعبية عن بطنها التي انكشفت من تحت البلوزة وهي تجرّب أقمشة فلكلورية، أو تحديق الناس في حركتها المفضلة وهي تمويج شعرها بهز الرأس يمنة ويسرة ثم إعادة ربطه، ولا أعرف كيف نجوت من غضب السكارى الرافضين اقتحامنا باراتهم الصغيرة كي نجرّب المَزَّة، وكيف عمدت إلى تصرفات لم أعتدها حتى في المراهقة والشباب الأول، كالتقبيل خِفيَة من خلف ظهور ركاب المصاعد، تدخين الحشيش في الأماكن المنطفئة على الكورنيش، ومداعبة "الأورجازم" في أوتوبيسات رحلات المدن البعيدة، لقد عالج كل ذلك مرارة قديمة في روحي، وأطلقتُ بيني وبين نفسي- على تلك التصرفات اسمًا رصينًا وساحرًا هو: إعادة بناء المراهقة.

أما علياء فكانت وعلى العكس من تصرفاتها الجامحة تكتفي بمقتضب الكلام، وكانت عباراتها القصيرة تبدو كإجابات تشرح أو تؤكّد ما كنت أؤمن به دون أن أفصح عنه، فلقد لاحظتُ مثلا، أنّها كانت – على الشواطئ، وفي الحدائق وموائد العشاء– تتهرّب من التقاط أي صورة، مكتفية بالقول: الصور ليست دليلا على أي شيء.

وكنت أعرف ذلك أكثر من أي شخص، إذ كان بحوزتي، مئات الصور التي أبتسم فيها، وبعضها أذكر يقينا أنني– في أثناء التقاطه كنت أفكر في الطريقة الأمثل للتخلّص من حياتي.

وهكذا كنّا، عبر الغناء في المواصلات العامة، والدخول العشوائي لحفلات سينما منتصف الليل، والتسلل عبر شرفات الفنادق، والزيارات المفاجئة للأصدقاء، في كل هذا وغيره كنت أستجيب لجموحها، وأسبقه أحيانًا بقوة، بدوتُ معها كما لو أن تلك هي عاداتي طوال حياتي، لكني قاومت الاعتراف بأن تلك القوة مبعثها الحب، لأن ذلك سيعني أنني لم أحب أبدًا في حياتي قبل ذلك، وهي فكرة لم أستطع تحمّلها، لأنها تتركني خاويًا تمامًا، أو قل ستضع الكثير من علامات الاستفهام أمام خسائر كبرى وآلام، ظننت أنّني تحمّلتها في الماضي من أجل الحب.

لم يقدّر لتلك التساؤلات، على أي حال، أن تستمر طويلا، وقد صرت أميل   بعد سنوات من كل ذلك- إلى الإيمان بتقلّبات الكيمياء وتفاعلاتها داخل الجسد، وتحكّمها البارد بما نسمّيه الحب أو الشجاعة، القسوة أو الإعجاب، ربما أفضى أحد تلك التفاعلات، إلى شحنة ما، تفسّر كل ما جرى.

إذ أننا، كما بدأنا فجأة دون مقدمات، انتهينا فجأة دون نذير أو سبب.

كنّا قد التقينا في مطعم ما، وانطلقت أنا في حديث ضاحك، وكانت علياء تستمع وهي ترفع حاجبين مندهشين، ثم سألتني فجأة عن أمر لا علاقة له إطلاقا بما أتحدّث عنه، كانت تفعل ذلك كثيرًا، و لم أكن أنزعج عادة، بل كنت أتخذ من ذلك سبيلاً للتندّر، ويومها أجبت سؤالها، لكنني ضبطت نفسي مترعجًا لأول مرّة منذ ليلة إبريل، لاحظت هي انزعاجي، واستفهمت مني، فتعللتُ بحموضة مفاجئة.

قمتُ إلى الحمام وحدّقت في المرآة، ورأيت في عيني شيئا قديمًا، فقلت أهلا بالشخص الأول.

رفعت يدي له بالتحية وعدت إلى مقعدي.

ولم أُكمل ما كنت أحكيه، ولم تنّبهني هي إلى ذلك، حدّقت في ملامحها، وشعرت ببعض غربة، وبنفس اليقين الذي تحدّدت به بداية كل شيء، أدركت بالقوة نفسها، أن عقارب الوقت الضائع بدأت دورانها، ورغم المراوح العملاقة في المطعم المفتوح، ظلّ الجو حارًا، وخطر لي أنني سأشتاق إلى نفسي معها أكثر مما سأشتاق إليها هي نفسها، وعندما جاء الطعام الذي طلبناه أخيرًا، نظرت في ساعة المطعم، فكانت الثالثة عصرًا و١٦ دقيقة.

الكــلام



حوصرتُ تمامًا بالشائعات، ولم يمرّ وقت طويل بين اليوم الذي وجدت فيه اسمي في خبر الصحيفة "طبيب ينسى مقص جراحة في بطن المريض"، واليوم الذي خَلَت فيه عيادتي تمامًا، وعبثا أخذتُ أردّد إنني لستُ جرّاحًا أصلا، ولا أجري عمليات، وإن خبر الصحيفة كان خطأ فادحًا وإنني نشرت في نفس المكان ردًّا مطوّلا، لكني كنت حسب ادعاءات الإنترنت قد "أُحلتُ إلى التحقيق، وأُوقفت عن العمل"، وعلى النقيض تمامًا، قال عنوان غاضب "الجرّاح القاتل (هكذا) ما زال يستقبل المرضى، أين نقابة الأطباء؟" وبين هذا وذاك، أخذت أقرأ على لساني ردودًا في غاية الغطرسة والجهل عن أسئلة صحفية لم يوجّهها لي أحدٌ، الأمر الذي زاد من استفزاز القرّاء الذين أخذوا يتساءلون "عمّن يحميني"؟

وفي النهاية، تحقّق الكابوس، وصرتُ أجلس متأمّلا الغبار المتراكم على أرضية العيادة دون آثار أقدام عليه!

ثم قطعت حسناء تضامنها معي فجأة، وظننت أولا أنها تخذلني في الأيام الصعبة، لكنها انهارت في غرفة نومنا و"واجهتني بالحقيقة"، وحاكمتني على "المرأة التي تنتقم مني بإطلاق الشائعات"، وأسمعتني الاتصالات والرسائل "التي تحَمّلتها بصبر في الأسابيع الماضية، والتي كانت تأتيها من كل حدب وصوب، لتحذرها وتكشف "خديعتي لها"، وتحالف الذهول والخطر معًا، فأعجزني عن رد مناسب، حيث البراءة لا تختلف عن الذنب، لأن صاحبها سيُنكر في الحالين.

هكذا خلا البيت بعد العيادة، وبذلت محاولات يائسة لتحسين صورتي، وجرّبتُ شعور أن تكون مُحتقرا حتى من البواب، واستيقظتْ لديّ ميول انتحارية، كنت قد ودّعتُها منذ المراهقة، وصرت في تردّدي الليلي بين الصالة والشرفة أسأل نفسي ببساطة، هل ينبغي أن أقفز بملابس البيت أم بملابسي الكاملة؟ بالعوينات أم دونها؟

في النهاية، كنتُأستيقظ عصرًا جوار الزجاجة ربع المكتملة، وأعدُ نفسي أن أتمالكها، لكن المساء يحلّ سريعا بدوّاماته نفسها، وحاولت أن أكسر الدائرة، فصرت أخرج إلى أماكن بعيدة لا يعرفني فيها أحد، في الواقع كانت غالبًا "بارات" بعيدة، أجلس في ركن ركنها، متأمّلا الوجوه الوحيدة، دون أن أحاول تخيّل حكاياها أو شيئا من هذا القبيل، بل تأملتها

بكراهية مطلقة، إلى أن جلس بجواري حسين، و لم أعرفه للوهلة الأولى و لم يعرفني، بالتدريج أدركنا بعضنا بعضًا، وتبادلنا كلاما أشبه بالهذيان، لكنه مع تقدّم الليل —والخمر– أخذ يبكي فجأة، وقال إن ضميره لا يحتمل، وإذا به يستعير قلما من النادل، ويكتب اسمًا على أحد مناديل المائدة، ويناولني إياه: هذا الرجل وراء كل ما جرى لك.

تطلّعت مندهشا للاسم، و لم أعرفه، وسألت حسين: أهو طبيب أيضًا؟

لا، مهندس.

قال حسين وغادرني في غلالة الذهول.

أعطيتهم – عبر الهاتف – اسمًا زائفا، وذهبتُ في الموعد أقدّم رجلا وأؤخر الأخرى، ودخلت مترددًا المكتب الأنيق للاستشارات الهندسية، وأنا أقرأ على الباب اسم صاحبه الذي أعطانيه حسين على المنديل الليلي، وراجعت في ذهني السيناريوهات التي أعددتُ لفتح الموضوع، وخيّم احتمال أن يكون الأمر كله هذيان سكارى، وقلت في النهاية لأترك الأمر للظروف، فلم يكن سوى اليأس الذي جاء بي.

وقادتني الشابة إلى الداخل، مشيت وراءها في الممر مراقبًا خطواتها الرقيقة، التي ذكرتني بحسناء، هززتُ رأسي والتقطت شهيقًا ودخلت

المكتب الواسع، واستقبلني عند الباب رجل متوسط الطول ببطن هائل الحجم، ببدلة كاملة وابتسامة مرحّبة، سرعان ما خفتت حين بان وجهي في الضوء، تطلع إليّ لحظة، ثم عاد يجلس وراء مكتبه، وأغلقت السكرتيرة الباب، جلستُ بنبضات أخذت تتسارع.

قرأ من ورقة أمامه الاسم الزائف الذي أعطيته للسكرتيرة، ثم تطلع في وجهي وابتسم: أهلا يا دكتور، ما هذه الخدع؟

لم أردّ، تبخّرت السيناريوهات، وتابع المهندس: أفترض بالطبع أن الموعد زائف أيضًا، ليس هناك تصميمات مطلوبة؟

تابعتُ الصمت، وتابع هو: من دلّك علي؟ لا يهم، لايهم، أرجو ألا تعتبر الأمر شخصيًا، أنت لا تعرفني، وأنا لم أكن أعرفك، كنت أقوم بعملي، لا أكثر.

تطلعت في المكتب الأنيق: عملك؟

تطلع في المكتب بدوره، كما لو كان مندهشًا مثلي: هذا؟ لا يا دكتور، أتكلم عن الذي جاء بك هنا، للأسف الشديد، كلّي خجل يا دكتور والله، أما هذا المكتب، التصميمات والسكرتيرة؟ هذا مظهر، غطاء، يمكن أن تقول" شائعة"، أنت جرّبت الشائعات مؤخّرًا، هه؟ آسف، آسف جدًا، هذه وقاحة مني، تقبّل اعتذاري.

لستَ مهندسا إذن؟ قلت وقد ضعتُ تماما.

أجاب باستنكار: مهندس طبعًا، ماذا تظنني يا دكتور؟ جاهلا؟ عواطليًا؟ زائفا؟ أنا لديّ موهبة، أليست لديك مواهب؟ هوايات؟ مؤكد، كل الأطباء لديهم مواهب، هل تكتب الشعر، الأدب؟ هل ترسم؟

- لديّ، كان لديّ، وأنت ما موهبتك؟ تشويه السمعة؟

هزّ رقبته بقوة، حتى اهتزّبطنه الكبير معه: تؤ، تؤ، لا يا دكتور، لا من فضلك، هذا اختصار مخلّ جدًا، ولكن أنت لم تشرب شيئا، لا يصحّ، لا يصحّ أبدا، ماذا تشرب؟

كنت أتصوّر أنني، في هذه الدقائق القليلة بعد دخولي المكان، سأكون ممسكًا بخناق الرجل إلى حد الجريمة، لكن هذه الدوخة الخفيفة التي بدأت تتسرّب إليّ جعلتني أتجاوب معه: قهوة مضبوط.

ضحك وهو ينهض: قهوة يا رجل، قهوة؟

فتح ستارًا في الركن، ومن ورائه بدا بارٌ كاملٌ، ليست خِزانة خمور، بل بارٌ حقيقي صغير، مع طاولة وكراسي وأريكة، أضاء نوره ووقف على بابه مرحّبًا بي كصديق حميم: تفضّل يا دكتور تفّضل.

دخلت وراءه، ووجدته يجذب ستارة أخرى على شبّاك، بان المشهد المرتفع على القاهرة الليلية، جلسنا حول الطاولة، صبّ كأسين "على ضمانته"، تناولتُ كأسي وراقبت خفّة حركته المناقضة لحجمه، أشار نحو النافذة: ما رأيك في المنظر من هنا؟ رائع، هه؟ ماذا كنا نقول؟ نعم، كنا نقول إنه اختصار مخلّ جدًا يا دكتور، جدًا، تشويه سمعة الناس؟ هذه إهانة في الواقع، إهانة سأتجاوزها لأنك ضيفي.

حاولت كظم غيظي، ولم يحتج الأمر إلى جهد كبير، الحيرة واليأس والكأس جعلوني هادئًا: عفوًا، لكن أظن تشويه السمعة، هو ما حدث معي بالضبط، لا اسم آخر له، ولا اختصار.

مال برأسه، وأجاب بلهجة غريبة، كأنها عتاب: لكن يا دكتور، ألم تخطيء أبدًا؟ ما الفارق بين (ورفع أصابعه في شكل أقواس) "مقص منسي في بطن مريض"، وقبل أن أكمل، أعلم أنك لست جرّاحًا، لكن ألم تخطيء من قبل أبدًا، ألم تشخّص مرضًا على أنه التهاب بسيط، لنقل في المعدة مثلا، ثم اتضح أنه شيء آخر؟

استيقظتْ ذكرى بعيدة في ذهني، ولكني أخمدتها بسرعة وقلت: الجميع يخطئ.

قال كمن يتوقّع إجابتي: صحيح، لكن لا أحد يعترف، خاصة إذا نسي أمرًا بديهيًا كهذا، تحاليل بسيطة، كان يمكن أن تنقذ العجوز المسكينة، أليس كذلك؟ حصوة بسيطة في المرارة، معقول، طبيب نابه مثلك يعجز عن تشخيصها؟ يتركها فمثلا مثلا، تسدّ الأمعاء؟ هه، الله يرحم الجميع، ويرحم أيام مستشفيات الحكومة.

عاد ألم الذكرى بضراوة، وعدت أسأله: هل أنت

قاطعني ضاحكًا: لا لا لست ابن المرأة أو شيئا من هذا القبيل، لسنا في فيلم عربي، هذه حادثة عرفناها في أثناء البحث الروتيني.

وغمز بعينه: اطمئن، سرّك في بئر.

خبطت الكأس على المائدة: سرّ؟ فضحتني بشائعاتك.

رفع إصبعه: لكنها كاذبة يا دكتور، مجرد شائعات كاذبة، ستأخذ وقتها وتنتهي، ماذا يؤذيك أكثر؟ الأكاذيب أم الحقائق؟

حدّقت فيه بلا كلام ، بينما واصل رسم ابتسامته الغريبة وهو يقول: على الأقل، تستطيع أن تنفي الأكاذيب بصدق، بقلب مخلص، تتلقى وطأها بإحساس المظلوم، دعوة المظلوم مستجابة يا دكتور أليس كذلك؟

قلت بعصبية ساخرة: ونعم بالله.

ضحك: ولكن لا تَدعُ علينا.

نفخت قائلا: فمن أنت إذن، ما أنتم، منظمة سرية تنتقم من ماضي الأطباء؟

ارتدى فجأة وجهًا ممتعضًا: لا تسخر مني يا دكتور، ولا تظن أني أنتقم، أنا أتلقّى تكليفا وأؤدي عملي، "بيزنس إذ بيزنس

فتحت فمي، لكنّه سبقني: ولا تسألني عمّن تعاقد معي، الأوفق أن تسأل نفسك، أصب لك كأسا؟

وتحرّك بالخفة ذاتها، ثم توقّف وسألني فجأة: هل تذكر سالم الغاياتي؟

فاجأني السؤال، قلت بحذر: السياسي؟

همم.

تابعت: أليس الذي مات ابنه بالهيروين، في شقّة تلك الراقصة؟

نظر إليّ مبتسمًا: تقريبًا!

وأشار نحو صدره، فيما يشبه الفخر: مات الولد في حادثة منزلية، سقط واصطدم رأسه، الراقصة تملك شقة في البناية نفسها، الهيروين من

نشاطات الأب، أنا مزجت كل شيء، بعد هذه السنوات أراها شائعة تقليدية نوعًا ما، أو قل إنهم قلّدوها كثيرًا، لكنها كانت أولى نجاحاتي، قدّمتني إلى عالم السياسيين.

قلت مذهولا لكن الولد..

قاطعني: صار في الدار الأخرى، لا يضرّه كلامنا، لكننا ضربنا به الأب، ألا تلعب البلياردو؟

هززتُ رأسي نفيا، ولكني تخيّلت "الغاياتي" على شكل كرة فوق طاولة خضراء.

صدّق الناس حكاية الابن نكاية في الأب، مع ذلك فإنهم قبلها لم يصدّقوا قذاراته الحقيقية، لم تكن مشوقة بما يكفي.

ثم تابع وهو يجلس: لكني لا أؤدي دورًا اجتماعيًا ولا أنتقم لأحد، بل أؤدي عملي، ولا تظنه سهلا، أفسده أولاد الإنترنت، يختلقون ترّهات بلا معنى، أكاذيب بلهاء يسمّونها شائعات، وصار تمييز الشائعة الأصيلة من الزائفة أمرًا أصعب يومًا بعد يوم، لا أعترض، هذا صار حال البلد كله، انحطاط ثقافي.

لم أتمالك نفسي من الضحك.

راقبني مبتسمًا ماذا؟ ألا يحق لمؤلف الشائعات أن يشكو؟

مختلق الشائعات.

- ما الفارق؟

لم أجد فارقًا، قلت ربما فقط لا أصدق أنها مهنة.

تظن إذن أن كل تلك الشائعات تنشأ من الفراغ؟ وأن الشركات والمتنافسين والأجهزة الأمنية لا يحتاجون إلى مبدعين، "كيريتورز"؟

عدت أضحك.

نظر إليّ متحدّيًا، ونطق ببطء: لماذا تظن أني أجريت أبحاثًا في ماضيك إذن؟ أتظنني محاميًا أبحث عن ثغرات؟

رفع كفيه، كأنه يشكّل جسمًا ما، ونظر بينهما: الشائعة الحقيقية، لو جاز التعبير، لابدّ أن تشبه المستهدف بها، أن تمس فيه شيئا.

طفت مجددًا في رأسي العجوز التي قتلتها بإهمال السنين الأولى، جرعتُ كأسي وأنا أسمعه يواصل: لا تكتمل الشائعة إلا برد الفعل، وإلا لماذا أيها الطبيب المحترم أخذت تدور على البارات الرخيصة؟ لماذا تصرّفت كمذنب؟

أخذت أطرق كأسي الفارغة بالطاولة، و لم يقترح علي ملأها مجدّدًا، لكن صوته استعاد مرحه فجأة: ولكن ها أنا أعطيك مجانًا دروسًا في سر المهنة، أي خدمة، هذا لأني عادة لا أقابل موضوعات العمل.

ضحايا العمل.

لا يوجد ضحايا فوق الثلاثين يا دكتور، على الأقل أنت على قيد الحياة، أليس كذلك؟

تقريبًا.

لا تتشاءم، الحياة كلّها أمامك، وهي قاسية على الجميع، أتظن أنني بدأت هكذا، كان لي طموحاتي أيضًا، ألم أسألك عن الهوايات؟ كنت أكتب قصصًا لم يقرأها أحد، لم أنجح سوى في الشائعات، سأظلّ مؤلّفًا مجهولا، ولكن ميسورًا على الأقل، من يعلم، ربما يومًا ما أصل للخلود.

ردّدت وراءه بلا تعبير: الخلود.

لكنه استدرك: الخلود في مهنتنا بالطبع، نظرية مؤامرة محترمة، تصمد للزمن، في هذا يتنافس المتنافسون.

قلتُ ساخرًا: شد حيلك، من جدّ وجد.

وجه إليّ نظرة لائمة و لم يتكلم، فتنبهت:هذه شائعة أيضا، أليس كذلك؟

ابتسم ونظر في ساعته   سعدت حقًا برؤيتك.

أفقتُ فجأة: ألن تخبرني بمن؟

قاطعني كالعادة، بنبرة كأنّها خيبة الأمل   أنت لم تفهم حقًا يا دكتور، أليس كذلك؟عدوّك لم يعد عدوّك، عدوّك الآن الكلام، الآراء، الانطباعات.

قلت "طواحين الهواء"

كرر ورائي وهو يهز رأسه: "طواحين الهواء"

نهضتُ، لكنني ظللت واقفا في مكاني: لكني لن أرحل قبل أن..

وتوقفت غير عارف "قبل أن ماذا؟"

لكنه هزّ رقبته العريضة، وقال بابتسامة حميمة   لحسن حظك أنني أؤمن بالتخصص.

قادني إلى المكتب مرة أخرى، أربكت عيني الإضاءة، ورأيته يكتب شيئا ما على ورقة: هذا الرقم متخصص في دحض الشائعات، قل لهم إنك من طرفي، وضحك: لكني أشك أن يقدّموا خصومات.

تطلعتُ في الورقة، ووجدت اسم سيدة، وقال الرجل هي صاحبة صالون تجميل، اتصل واحجز موعدًا، أظنه ليس بعيدا عن بيتك.

ومدّ يده فجأة إلى ذقني نصف النابتة سيهتمون بك في الأمرين.

أوصلتني الشابة الجميلة إلى الخارج، غادرتُ البناية، وخطر لي فجأة أنني لم أسأل عن تكلفة الأمر، ثم خطر لي أن مقابلة حسين لي في البار ربما لم تكن مصادفة، وفي الليل البارد توقفت، وتطلعت في الورقة واسم السيدة المجهولة، وتذكرت حسناء مرة أخرى فترددت لحظة، ثم تذكرت البيت الفارغ فحسمت أمري، واتصلت بالرقم لأحصل على العنوان، وقررت التوجه مباشرة إلى هناك.

القيلولة

ما كان يؤمن به سعيد عامر، ليس عن منهج علمي، ولكن عن خبرات مباشرة، أن الناس يبقون في أمان، أو بعيدا عن الموت على الأقل، ما لم يغيّروا عاداهم فجأة، كأن يبدؤوا – بعد طول انقطاع بالاتصال برفاق الصبا والأصدقاء القدامى، أو أن يكتشفوا هواية جديدة بعد منتصف العمر، أو يمسّهم تحوّل مفاجئ في شخصياهم، من الحدّة والعصبية إلى البشاشة واللطف، أو العكس.

لهذا، ففي اللحظة التي انطبقت فيها الأصابع المجنونة الغليظة على رقبة سعيد، فإن أول ما خطر على باله، كان القيلولة.

لكنه قبل ذلك، كان بعيدًا عن أمور الغيب مشغولا بمشكلة عمليّة بحتة، بعد أن التحق بعمل إضافي في المساء، مضحّيًا بسهرات المقهى التي عطّلته كثيرًا، واكتشف أن جسده الذي اعتاد السهر، ليس مستعدًا بأي حال لمواصلة العمل من الصباح إلى الظلام، قبل ذلك، أيام كان ملتزمًا بوظيفة واحدة، كان يسعى للمناوبات المتأخرة، فينام إلى فترة الضحى، أو يذهب للمناوبات الصباحية ساهرًا، ثم يعود من العمل ليسقط

في نوم ثقيل حتى تظلم الدنيا فيخرج للسهر، عندما قَبِل الوظيفة الإضافية، صار يخرج من عمله النهاري إلى المقهى، فلا يجد أحدًا من أصحابه الليليين، يتناول فنجاني قهوة ويطالع الصحف المسائية ثم يتوجّه للوظيفة الأخرى، يبدأ العمل بنشاط لساعة أو ساعتين، ثم تظلم عيناه ويشرد ذهنه، وقدّر أنه لو استمر على هذا المنوال فسيخسر العمل الجديد سريعًا، ولم يجد بدًّا من اللجوء للقيلولة.

بدأ يعود إلى البيت مباشرة بعد وظيفة النهار، يضبط المنبه على ساعة أو ساعة ونصف، يُظلِم الغرفة، ويتمدّد على ظهره متوسّلا النوم، ولو لعشر دقائق، لينهض بعدها مستعدًّا لوظيفة الليل.

في البداية، فشلت الخطة، فكان إما أن يعجز عن النوم قلقا من أن يفوته موعد العمل، وإما أن يسقط في غيبوبة كالموت، فيستيقظ وقد انتصف الليل وهدأت الشوارع، فيظل يلعن نفسه مكتئبًا حتى الصباح.

حكى مشكلته لزميل مخضرم يجمع بين ثلاث وظائف معروفة، فضلا عن الخفي منها، نصحه الزميل يتناول وجبة ثقيلة فور العودة إلى المترل، ثم التمدّد بعدها مباشرة، وهكذا أكّد الزميل سيدفعه الطعام الدسم إلى النعاس، وفي الوقت نفسه سوف يضغط الدسم على صدره، فلا ينام طويلا.

حققت نصيحة الزميل نجاحًا باهرًا، لكنها أسفرت عن عيب متوقّع، هو الكوابيس.

في اليوم الأول رأى نفسه في قطار من الطراز القديم، يجلس في كابينة تُطل نافذتها على مساحات مزروعة حوّلها الشتاء إلى اللون الرمادي، وأمامه تجلس شابة حلوة تكلّمه بحميمية شخص يعرفه، لكنه عجز تمامًا عن تذكرها، وخشي أن تنتبه إلى جهله بها، ثم ما لبث أن اكتشف – في أداء كلاسيكي– أنه حافي القدمين، فحاول أن يشغلها بالكلام وبمناظر النافذة، غير أنه وجد نفسه فجأة على رصيف المحطة المزدحمة، ولمح بعينيه بائع أحذية، فاتجه نحوه، وإذا بالفتاة تنادي عليه ثم تنزل لتلحق به، لكن القطار تحرّك فجأة، واندلعت صرخة مروعة، نهض من النوم مفزوعًا، وفي ظلام الغرفة كان رنين المنبه مستمرًّا بلا انقطاع.

توجّه إلى العمل مترعجًا، لكنه ما لبث أن نسي كل شيء، فعلى الرغم من الكابوس، منحه النعاس القصير نشاطًا وحيوية لدرجة أنه قرر في أثناء عودته أن يمرّ على المقهى بعض الوقت، كانوا جميعا هناك، فقضى وقتًا طيّبًا، وعاد إلى البيت وهو يخشى ألا يستطيع النوم مجدّدًا قبل عمل الصباح، لكنه سقط في نوم هادئ بلا أحلام.

لكنه في اليوم الثاني كان في بيت الطفولة يتفحّص الحجرات، ولا أحد من أهله هناك، والوقت هو نزول المساء أو طلوع الصباح، فالسماء تبدو غيمًا ضبابيًا من النوافذ التي لا يبدو منها أحد، كأن العالم خاوٍ تمامًا، وتوجّه نحو حجرته القديمة وتطلع إلى فراشه ذي الطابقين، ولمح شقيقه الأصغر نائمًا في مكانه بالأعلى، فتوجّه إليه بلهفة، وسحب الغطاء، ولكن لم يكن تحته سوى كومة أغطية أخرى، أما على سريره هو فكانت المرتبة مسحوب نصفها على الأرض، وقد تكسّرت الدعائم الخشبيّة، انحنى ليعيد المرتبة مكانها، لكنّه سمع صوت باب الشقة ينفتح بصوت فرقعة مدّوية، فنهشه الهلع، ولم يرن المنبه سوى بعد أن استيقظ بدقيقة أو اثنتين.

في اليوم الثالث، تناول الغداء وتمدّد بشيء من التوتر، لكنه نعس سريعًا، ووجد نفسه في المقهى يلعب الورق، وإذا بضغط هائل على أمعائه، فتحرّك مسرعا كي يفرغها، ليس في المقهى سوى مبولة حقيرة، فذهب إلى مطعم مجاور، فمنعوه وقالوا للزبائن فقط، خرج يبحث عن دورة مياه عامة، ورأى واحدة في نهاية الشارع، فأخذ يجري نحوها كالمجنون، دخل من الباب فنهرته المرأة وقالت إنها للسيدات، ذهب إلى الباب الآخر ووجد امرأة أخرى هائلة الحجم في جلباب أسود تسدّ المدخل، وجذبه رجل من ذراعه وقال عيب يا أستاذ، وتبلّل بالعرق البارد وكاد يبكي من الألم الرهيب، واستيقظ فمسح عينيه، ولكن لم تكن

دموع هناك، نهض في فراشه لاهثا، التقط أنفاسه ودخل الحمام، وبينما كان يغسل وجهه، سمع رنين المنبه، فقال أين كنت قبل دقائق؟ ثم انتبه إلى أنه يكلّم المنبه، فبدأ يلعن نصيحة الزميل.

لكن اليوم الرابع مر هادئا، لم يحلم سوى بأن الفريق الوطني خاسر بثلاثة أهداف في المباراة الكبرى، ومع ذلك احتسب الحكم وقتا إضافيا، فعادت الروح إلى الجمهور، وحصل الفريق على ضربة جزاء، ولكن المنبه رن قبل أن يسدّدها اللاعب المشهور، واستيقظ سعيدا دون حسرة كبيرة، فالوقت لم يكن كافيا على أي حال للتعويض، وبينه وبين نفسه لم يحتسب حلم المباراة ضمن الكوابيس.

لم يحلم بشيء في اليوم الخامس، أو ربما حلم بشيء لم يتذكّره، فقد بدأت إجازته الأسبوعية، فلم يضبط المنبه ونام طويلا جدًا، وبعد يوم آخر رأى فتاة القطار مجدّدًا، كانت تستأذن في الجلوس أمامه في الكابينة، ولم يبد أنها تعرّفت عليه بعد، ولكنه لم يكن متأكّدا إن كان الحلم مكرّرًا حقًا أم أن عقله يخدعه.

لكن قيلولة بداية الأسبوع جاءت قاسية، في شارع مظلم كان يبحث عن عنوان قديم، ويلوم نفسه لأنه أضاع ورقة العنوان، ودخل حارة أسلمته إلى أخرى، فأحاطته شلّة شبّان يبدو عليهم الإجرام، استعد

للسرقة بالإكراه، ووجدهم يفتشونه بطريقة مهينة فمنحهم سريعا كل شيء، وطردوه شر طردة، ولكن أحدهم لحق به وفي يده مطواة مرعبة، كان يمشي خلفه تمامًا، ولكن سعيد لم يجرؤ على النظر خلفه، ولا يعرف هل عليه أن يسرع أم يمشي ببطء، يتحرك للأمام والمجرم وراءه كظله، وطالت الطريق لكنها ظلّت خالية من البشر، وأحس بشيء ينغزه في ظهره، فقام صارخا، وتحسّس الألم في جنبه، وفكر لأول مرة أن يترك أحد العملين.

في المساء التقى الزميل المخضرم، تردد قليلا ثم حكى له مشكلته الجديدة، استمع إليه زميله، وارتسمت ملامحه تدريجيًا في نظره استهجان بالغ، وقال: أهذه كوابيس؟ هذا الهراء تسميه كوابيس؟

ووصل في تلك اللحظة زميل آخر، فإذا بالمخضرم يحكي له بعضًا من حديثهما، فضحك الآخر، ثم بدأ يلوم سعيد:

هل سقطت عينك، وقضيت الليل تبحث عنها بين أحذية الناس؟ هل دفنت جثة في غرفة ضيقة وأنت تبكي لأنك صرت قاتلا؟ هل انفجر مصرانك في الحلم وأيقظ صراخك الجيران؟

وانسجم معه المخضرم:

هل اشتهيت أمك أو خالتك وقضيت النهار لا تستطيع رفع رأسك؟ هل تحرّشوا بمؤخرتك وأردت إبعادهم لكنك لم تحرك إصبعًا؟ كم مرة سقطت في بئر السلم؟ كم مرة لفظت الشهادتين بين الفئران والقمامة؟ كم ثعبانًا لدغ خصيتيك؟

بدأ سعيد يشعر بتفاهة كوابيسه، فغيّر مجرى الحوار، وإن ظل يعتقد في نفسه أن كابوس السرقة والمطواة لا ينبغي الاستهانة به.

وانتهى العمل مبكّرًا نسبيًا فغادر، تمشّى قليلا وهو يفاضل بين المقهى والمترل، ورأى متجرًا يبيع مستلزمات مكتبية، فخطر له أن يدوّن أحلامه، ثم قرر أن يكمل المشي ليستقل "الميكروباص من موقفه في الميدان القريب، لم يجد الموقف ووجد رجال شرطة ومشاجرات في الزوايا، وعرف أنهم نقلوا الموقف إلى ميدان آخر، توجّه نحوه مع المارة، واخترق معهم طريقًا مختصرة، وهناك رأى مبنى عتيقا ما لبث أن استوقفه.

هل كانت تلك البناية التي رآها في الليلة الخامسة التي ظن أنه لم يتذكرها؟ بين أحلامه كانت تتكرّر باستمرار، تقبع أحيانًا وراء الفيلات القديمة المتداعية في عين شمس، وأحيانا في مساحة مجهولة بين شارعي منصور والألفي في وسط البلد، وأحيانًا بالقرب من ناصية عريقة في شبرا، كانت تطمئنه على نحو ما، إذ كان يعلم – في كل حلم – أن لديه

مفتاحها، وأن الإيجار مدفوع لسنوات، وما عليه سوى أن يتذكر مكانها بالضبط.

وقف أمام البناية العتيقة وفكر أن تلك الشرفات مهدّدة بالسقوط في أي لحظة، وتحسّس جيبه تلقائيا كأنما يبحث عن المفتاح، لكن هرجًا وتدافعًا مفاجئا أعاده إلى الواقع، فاتجه نحوها — بحذر بدافع الفضول، وما إن اخترق الزحام حتى رأى الرجل المجنون هائل الجسد وهو يدفع الناس ويطلق سبابا من حنجرة مخيفة.

تراجع سعيد خطوتين، إذ وجد الرجل متجها ناحيته، وعلى الرغم من أن الناس كانوا يحيطون سعيد فإنه - بسبب خبرات مؤسفة في حياته- أيقن أن الرجل سيتجه نحوه مباشرة، لكنه لم يتوقع أن الرجل سيمسك بخناقه على هذا النحو، ولا أنه سيعتصر رقبته بهذه القوة المستحيلة، ولم ينتبه سعيد إلى أن رجلين شجاعين حاولا بلا جدوى أن يُفلتاه من الرجل المجنون، وفي اختناقه، تعلّقت عيناه الجاحظتان بالبناية المتداعية، مستحضرًا أملا طفيفا، بأن يكون الأمر مجرد كابوس آخر.

٣٥ ملم

في جلبابها تقترب ببطء من التلفاز، حتى تكاد تحجب الشاشة، تقرّب رأسها، وتضيّق عينيها رغم النظارة الثقيلة، وتسأل: تمثيلية إيه يا ولاد؟

نردّ بنفاد صبر: فيلم يا تيتة، فيلم.

ويظهر شبح ابتسامة على وجه أمي، التي تضع قدمها على دواسة ماكينة الخياطة، ويدها على القماش تحت الإبرة، وطرف عينها يراقبنا، وأنفها يراقب رائحة النضج في المطبخ.

تتراجع جدّتي وتجلس، أو تخرج من الحجرة التي يطلّ زجاجها على شرفة الجيران، وحتى قبل سنوات طويلة من معرفتي بالفارق العلمي بين صورة الفيديو وصورة السينما، بين "الفي إتش إس والــ ١٦ ملم"، بين الإضاءة الساطعة المسطحة والأبعاد المتباينة الزاهية، كنت أندهش كيف أن جدّتي، التي لم تعد تفعل شيئا أصلا سوى متابعة المسلسلات، ما زالت تعجز عن التمييز -ببساطة كالجميع- بين صورة الفيلم وصورة المسلسل، فتسألنا، ونحن نتجمّع حول شاشة "التليمصر السؤال نفسه، أو معكوسه: فيلم إيه يا ولاد؟

فنردّ بالصوت العالي، مغالبين سمعها الثقيل: تمثيلية يا تيتة، تمثيلية.

وأعبر محيطًا وقارتين وثلاثين عامًا، في الطابق الثامن والعشرين، أرتدي ملابسي الشتوية كعادتي، رغم التدفئة المركزية، على عكس "آن" التي ارتاحت فوق أريكة الصالة في شورت قصير، ومدت ساقيها الطويلتين بطول الأريكة، وابتلعت من لحظة لأخرى رشفة من النبيذ الأحمر المرتاح على الطاولة، والصالة معتمة إلا من ضوء الشاشة "الإل سي دي"، وفيها تبدو الفاتنة فوق تلّة عالية خضراء، تهمس بشيء للشاب المبتسم، ثم تدفعه فجأة فيسقط صارخًا من حالق.

أترك أوراقي وأقترب سائلا عن الفيلم.

مسلسل يا حبيبي، مسلسل.

تجيبني آن، فأحني رأسي تلقائيًا نحو الشاشة، محاولا قراءة الحروف الصغيرة في ركنها، ولجزء من الثانية بين إضاءة وإظلام الكادر، تتجسّد صالتنا القديمة، تتسلل رائحة "التقليّة" وهدير ماكينة الخياطة.

رمش العين

كنت عند محمد، نُعيد ترتيب أثاث شقته، لأنه صار مقتنعًا تمامًا بأنه يمشي في أثناء النوم، محمد لا الأثاث طبعا.

انتهينا قبل المساء، مع آخر ضوء للغروب أسندت آخر كرسي في الصالة تحت الشباك المواجه لباب الشقة، وناديت: هنا؟

رفع محمد إبهامه موافقًا، ووقفنا نتطلّع إلى الشقة التي بدت مع إعادة فرشها شبه خاوية، المقاعد وحتى الطاولات صارت ملتصقة بالحوائط، تاركة مساحات واسعة في المنتصف، يُمكن المشي عبرها بلا عناء، لكنّ الشقّة بدت كما لو كانت تستعد لاستقبال خِطْبَة أو عزاء.

والسبب؟

أشار محمد إلى جروح في ساقيه، نتيجة الصدام الليلي مع المقاعد وأطراف الموائد.

"أنام في غرفتي، فأستيقظ في الصالة، في الطُرقة، أحيانًا في المطبخ"، أخذ يؤكد لي مرة أخرى، لكنه رفض أن ننزل قبل أن يقيم تجربة أخيرة.

وقف عند مدخل غرفة النوم، أغمض عينيه، وأخذ يتحرك مغمضا في الصالة، يفتح عينًا ويغلقها، ويعيد توجيه نفسه، ثم يهز رأسه متمتمًا لنفسه: تمام، تمام.

لكن في تلك اللحظة، وأنا أتأمله "يبربش بعينيه، قفزت إلى ذهني "رمش العين من مكان غامض في الذاكرة، واستغربت أنني لم أفكر فيها من قبل، وفكرت أن أسأل محمد عنها، لكني قررت أن أتأكّد أولا، إذ أن لي خبرات سابقة مع ذكريات، اتضح أنها مُختَرَعة تمامًا وليس لها أي أساس.

نزلنا، وقال محمد إنه لم يبق سوى أن يتأكد كل ليلة من إغلاق الباب جيّدًا وتخبئة المفتاح كي لا يستيقظ في الشارع، أمّنت على كلامه قائلا إنها فكرة لا بأس بها، منذ أمد طويل لم أعد أناقش محمد في نوباته.

ودّعته تحت البيت ذاهبا إلى أحد مشاويره الغامضة، وقرّرت أن أتمشّى قليلا قبل العودة إلى منزلي، رأيت كشك زهور مضيئا عند الناصية، توجّهت إليه، تأمّلت الباقات وراء الزجاج، دخلت.

رمش العين؟

ردّد البائع ورائي، وقال إنه لا يعرف، وقال سوف يسأل.

كان يبدو شابًا، وربما بلا خبرة، وفكّرت أنه من الأفضل أن أسأل في إحدى صوبات وزارة الزراعة على الكورنيش، لكني شعرت بالإرهاق فجأة، فبدأتُ رحلة العودة الطويلة إلى المترل.

نهى نائمة مبكّرًا، كما هو حالها في الأسابيع الأخيرة، خلعت ملابسي بهدوء، وتمدّدت بجوارها متوقّعا أن تفتح عينها، لكنها لم تفعل، بدا صوت تنفسها منتظمًا، ثم بدا متشنجًا، لكني قدّرت أن ذلك من صنع خيالي، قمت وفتحت الستائر قليلا كي تتسرّب أنوار الشارع إلى الغرفة، وعدت أتمدّد على ظهري، وتقلّبت نهى وبدا كما لو كانت تقول شيئا، ثم وضعت يدها على بطنها وواصلت الغياب، بعد شجار طويل وحلو استقرّ رأينا على اسم "حنين"، وكنا نتجادل ونتقارع بالحجج، وكأن البنت تسمعنا، وحين جاءت، قلت يا الله لَمَ منحت البنت أنفي الأفطس؟ علامة العائلة التي تمنّيت لو تتحرّر البنت منها، لكني كنت أقول ذلك لنفسي مازحًا، ولم أنتبه إلى ضعف حنين، وكيف كان لي أن أعرف؟

و يجيء طبيب فجأة وممرضات، ثم تنتقل البنت إلى الحضّانة، وأبدأ في حساب التكاليف الزائدة، متنقلا بين نهى والزجاج الذي يحتجز ابنتنا التي لم نلاعبها بعد، لم تزد التكاليف الشيء الكثير، لأن أنفي الذي في وجه حنين لفظ روحها الصغيرة بعد يومين، وكنا نستمع للتفسيرات الطبّية فلا

نسمع – في الحقيقة – شيئا، وأيامها كان محمد بجانبي يساندني ويساعد في إنهاء الإجراءات، لكنه كان يعيش تلك المرة نوبة القلب، وككل نوباته، ينسجم معها تمامًا كأنه وُلد بها.

يتحرّك ببطء ويتكلّم ببطء، وكل دقيقة أو اثنتين يضع يده على صدره أو رسغه الأيسر ويحسب باهتمام، ويُقسم لي: أمس توقّف قلبي مرتين.

وينتحي بي جانبًا في ردهة مشفى الولادة، ويرفع القميص، كدمة حمراء في منتصف صدره، يشرح:

"أخذت أضرب بقوة وأسعل، حتى عادت الدقّات ثم انتظمت"

وأهزّ رأسي له كالعادة، وأهنّئه للمرة الألف على سلامته، والآن ينبض ذراعي فجأة من مجهود نقل الأثاث في بيته، وأعرف أن مسألة المشي نومًا ستنتهي بمجرد أن أتّخذ تلك الإجراءات، وأغمض عيني جوار نهى وأحاول أن أتذكّر متى سمعت أو قرأت عن رمش العين، الزهرة الجميلة التي تعيش يومًا واحدًا ثم تذبل، وبعد أيام تنبت زهرة أخرى من نفس الساق، لتعيش يومها الوحيد كرفّة رمش– وتنتهي.

ويفاجئني ضوء الصباح، فأعرف أنني غفوت، وأجد نهى لا تزال نائمة، أقلق عليها فأهزّها، تفتح عينيها ولا تبتسم، وأؤجل مرة أخرى الحديث معها حول مسألة المهدّئات، وأتوجّه إلى المكتب.

أبحث على الإنترنت، أكتب في خانة البحث "زهرة رمش العين"، "وردة رمش العين"، "نبات رمش العين"، لكن لا شيء، لا معلومات ، لا صور، لا نتائج سوى بعض الأغاني عن العيون والرموش.

أما الرجل في الصوبة على الكورنيش فقد طرح عليَّ سؤالا تجاريًا: ولكن يا أستاذ، من سيبيع زهرة تعيش يومًا واحدًا؟

ويبتسم: هذا حتى فأل سيء!

لكنه حين يلاحظ امتعاضي، يطلب مني أن أنتظر لحظة، يقودني إلى أحد الأركان، يُريني نباتًا له أوراق رفيعة مسحوبة إلى الجانب فوق عين الزهرة: ما رأيك في هذه؟ ألا تشبه الرموش؟

لم أر الشبه، ولم يعجبني حتى التشبيه، غادرت، وبدأت أشك بالفعل أن يكون الأمر من اختراعي، لكن بغض النظر عن الحقيقة والخيال، بدأت أفكر في حنين مسمّيًا إياها رمش العين، ثم اختصرته إلى "رمش"، وذهبت للقاء محمد وأنا أتمتم في سرّي "الله يرحمك يا رمش

وفي طريقنا إلى المقهى، توقّف محمد، وأمسك رأسه، قال "الضغط"

كدت أقول له – كالعادة سلامتك، لكنه تلفّت حوله وجذبني إلى دار عزاء، كان صوت مُقرئها يصل إلينا، دخلت وراءه مرتبكًا، سلّمنا على الصف الطويل في المدخل، وقبل أن نجلس، أشار محمد إلى النادل متمتمًا "قهوة سادة، بسرعة"

جلست جواره مستسلمًا، راقبته يرتشف قهوته، كان يتطلّع إلى المقرئ الضرير الذي وضع كفه جواره أذنه، وقد مال برقبته كعادة المقرئين.

سألني محمد: لماذا يميل فاقدو البصر برقبتهم هكذا؟

نظرت إليه مستفهمًا.

تابع: كأنهم ينظرون إلى السقف، أو السماء.

عرفت أنه يبدأ إحدى نوباته الجديدة، أجبت سريعًا:

لا ينظرون إلى مكان، أظنّهم يوجّهون أذنهم نحو مصدر الصوت.

"ممم"، أجاب.

ثم تابع: هل أخبرتك عن الأسبوع الذي فقدت فيه السمع تمامًا؟ في الجيش؟ هذا ما علّمني قراءة الشفاه.

هززت له رأسي دون إجابة، وراقبته يبدأ تدريجيًا في تحريك رقبته يمنة ويسرة على طريقة المقرئين.

+

المحتويات

الموضــــوع	الصفحة
يا عيسى	٧
استدعاء	١٥
طــــــائر	٢١
بينج بونج	٢٧
غَفْــــوَة	٣٧
الخروج من الليل	٤٥
جــــمــــعــــة	٥٣
الأيام المفقودة	٦١
آثار جانبية لمطر مفاجئ	٧٣
الــــديـــب	٨٥
وقت مستقطَع	٩٥
الكــــــلام	١٠٣
القيلولة	١١٩
٣٥ ملم	١٢٩
رمش العين	١٣٣

الكتب خان للنشر والتوزيع®

شارع ٢٥٤ – دجلة – المعادي – القاهرة.

تليفون

بريد اليكتروني:info@kotobkhan.com

موقع اليكتروني:www.kotobkhan.com

